دُروسٌ مِنْ هَدْيِ ٱلْقُرْآنِ ٱلْكَرِيمِ

سِلْسِلَة دُرُوسِ رَمَضَانَ

(ٱلدَّرْسُ ٱلثَّانِي عَشَر)

سُورَةُ البَقَرَةِ

مِنَ الآيَةِ ﴿٢٧٥﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إِلَى الآيَةِ ﴿٣٢﴾

أَلْقَاهَا ٱلسَّيِّد/ حُسَيْن بَدْرِ ٱلدِّين ٱلحُوثِي

بِتَارِيخ: ١٢ رَمَضَانَ ١٤٢٤ هـ

المُوَافِق: ٦ /١١/ ٢٠٠٣ م

ٱلْيَمَن - صَعْدَة

هذه الدروس نُقِلَتْ من تسجيل لها في أشرطة كاسيت،
وقد أُلْقِيَتْ ممزوجة بمفردات وأساليب من اللهجة المحلية العامية.
وحرصاً منا على سهولة الاستفادة منها أخرجناها مكتوبة على هذا النحو.

إعداد/ يحيى قاسم أبو عَوَّاضَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين.

اللهم اهدنا وتقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

عندما يتأمل الإنسان بالنسبة للقرآن الكريم يجد – فعلاً – أنه كتاب شامل، يتميز عن أيِّ كتاب آخر مما تُبذَل الأعمار والأوقات والجهود في سبيلها. هنا يتناول القرآن الكريم كل شيء، فتجد فيه التذكير بالله سبحانه وتعالى، والتذكير باليوم الآخر، تجد فيه الإرشادات الهامة في كافة المجالات، تجد فيه التشريعات في كل المجالات، تجد فيه الترغيب والترهيب على أعلى مستوى، تجد فيه الحديث عن معرفة الله على أعلى مستوى، تجد فيه كل الإرشادات على أعلى مستوى كما قال الله فيه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(الإسراء:٩).

فعندما يكون هناك اهتمام بالقرآن الكريم، إجلال للقرآن الكريم، إيمان بأنه – فعلاً – كتاب شامل يستفيد الإنسان منه في كل شيء، لم يجعله الله سبحانه كتاباً معقداً غامضاً على الرغم من أنه (بَحْرٌ لا يُدرَك قَعْرُه) يستفيد كل إنسان منه ولو مِن خلال أن يسمع تلاوته، عندما نسمع التلاوة ألسنا نستفيد أشياء كثيرة ونفهم أشياء كثيرة؟ مِن خلال تلاوته. ما نفهمه من خلال التلاوة شيء كثير وهام جداً، إضافة إلى ما يمكن أن نفهمه أيضاً بطريقة أخرى زيادة تبيين للآيات نفسها؛ ولهذا وصف الله آياته بأنها (آيات بينات) فيها بيان يكفي، يكفي من مجرد تلاوته، وما يحصل مِن خلال السماع لتلاوته يكون – أيضاً – أسساً لفهم أكثر، وتَقبُّل أكثر لِمَا يأتي من تبيين من داخل آياته، ومن عمقه كما قال الإمام علي عليه السلام عنه أنه (بَحْرٌ لا يُدرَك قَعْرُه).

نحن نذكّر دائماً بأن كل ما نقوم به هو عملية استيحاء من خلال آيات الله من خلال آيات القرآن الكريم لا يعني أن ما نقدِّمه هو كل ما يمكن أن تعطيه الآيات! لو نجلس مع القرآن الكريم كل شهر وكلما انتهينا منه عدنا إليه لَمَا نفدت فوائده، لَمَا نفدت إرشاداته وهداياته!

وكما نذكّر أكثر من مرة: بأن القرآن يكون بهذا الشكل بالنسبة لمن؟ لمن يفهمونه بأنه كتاب حركة، كتاب حياة، كتاب عمل حتى فيما يتعلق بما نسميه (فقه) بما نسميه أحكاماً مُعيَّنة تجد بأنه لا يكون حديثه عبارة عن إصدار فتوى في الموضوع، بل هو فقه يعطي الحكم في القضية، ويُبيِّن الطريقة لتغيير القضية في كيف يعمل الناس ليُغيِّروا المنكر المُعيَّن. مثلاً نجد في موضوع (الرِّبا) والرِّبا من أكبر الجرائم، وأكبر الكبائر عند الله، بل ومن أكثر الممارسات التي يعملها كثير من الناس، ومن أكثرها ضراً على عباد الله.

بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى ما فيه إشادة بالإنفاق في سبيله، وما وعد به المنفقين في سبيله، إلى أن انتهى إلى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوفٌ عَلَيهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(البقرة:٢٧٤) هناك أيضاً ممارسة أخرى فيما يتعلق بالجانب المالي تُعتبَر مضيعة جداً، وتُعتبَر من أشد الأشياء ضراً على الناس (على الأمة) في حياتهم لنفهم كيف أنه يمكن بالنسبة للمال أولاً: أنه مرتبط بالنسبة للناس مما يجعل للمال قيمته وأثره الكبير في حياة الناس وأن هذا المال نفسه من خلال ممارسة مُعيَّنة يصبح شراً على الناس.

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾(البقرة:٢٧٥) الرِّبا: عندما تقرض قرضاً وتشترط بأنه عندما يسددك يعطيك – مثلاً – زيادة سواءً كانت زيادة بنسبة مُعيَّنة بنسبة ٢٪ أو ٥٪ أو ١٠٪ كيفما كانت المهم هناك زيادة هذا يُسمَّى ربا، وكان هذا هو الرِّبا السائد عند العرب في ذلك الزمان، واليهود هم من المشهورين بالتعامل بالرِّبا وتعميم الرِّبا، اليهود أنفسهم.

الرِّبا يكشف عن حالة جشع رهيبة عند الإنسان المرابي الذي يمارس هذه الجريمة الكبيرة، أي: عملية تتنافى تماماً مع الأخلاق، تتنافى تماماً مع ما يجب أن تكون عليه في تعاملك مع الآخر (مع المحتاج) يكشف عن جشع رهيب، عن نفسية لم يَبْقَ لديها أيُّ ذرة مما يُسمَّى بإنسانية، أو بأخلاق كريمة، لا رحمة، لا عاطفة، ولا شفقة، همُّه المال، ونفسه ذائبة في المال، وإذا أعطى شيئاً فلا يعطيك من أجل أنه يريد أن يُقدِّم إليك معروفاً، أو يريد أن يعطيك بدافع عاطفة، بدافع رحمة، بدافع أنه يريد أجراً من الله سبحانه وتعالى، بل يعطيك ويريد مقابل ما يعطيك زيادة!

للأسف هذا الرِّبا مما هو منتشر في الدنيا بشكل رهيب، وداخل البلاد الإسلامية حتى أصبح – تقريباً – تعاملاً شبه طبيعي وكأنه لا يمثل أيَّ منكر من المنكرات، وكأنه ليس فيه أيُّ ضر من الأضرار.

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ﴾ أي: يوم القيامة عندما يُبعثون، يُبعث فيتخبط وهو يساق إلى المحشر كالمصروع

﴿إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾(البقرة:٢٧٥) ولا يستبعد أن تكون هذه حالة تصل بالإنسان الذي يسيطر الجشع والطمع على نفسه فتراه غير متزن، يصبح إنساناً غير طبيعي، لو تتابع حركات بعض التجار، ورجال الأعمال – كما يسمونهم – تراهم وكأنهم غير متزنين، كالمصروعين، كالسكارى! ليس هناك اتزان لديهم، يقوم مِن على فِرَاشِه، يقوم من محل عمله، يقوم مِن أيِّ مقام هو فيه وذهنيته مستغرقة تماماً بموضوع المال ومتابعة مسيرة حركة المال ما بين ربح وخسارة وفي ذهنيته حسابات طويلة عريضة تجعله إنساناً غير متزن وغير طبيعي!

لهذا ليس بعيداً إذا تأمل الواحد – فعلاً – وتابع حركات كبار رجال الأعمال – كما يقولون – أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة المرابين يكونون بهذا الشكل؛ لأن الطمع في المال، الجشع الكبير في المال يُفقِد الإنسان اتزانه وحركته الطبيعية وتصرفاته الطبيعية! إذا كنت تتابع أحياناً يظهر الناس الذين يكونون في (البورصات) – كما يسمونها – ترى كيف حركاتهم! مرة اتصال من هنا، ومرة اتصال من هنا، ومرة من هنا، ومرة يمسك هذا، يُقدِّمون له قهوة يُقدِّمون له أكلاً تجده مثل المصروع!

بالنسبة للإسلام فيه توازن ينفرد به فعلاً، فيما يتعلق بموضوع المال لا نجد أن في الإسلام هناك حداً مُعيَّناً لا يجوز أن يتجاوزه رأس مالك، بل بالإمكان، والتوجيهات في القرآن الكريم، أن يكون الإنسان ممن يملك رؤوس أموال كبيرة جداً لكن وتجده – في نفس الوقت – متزناً، وطبيعياً، ويحب فعل الخير، وبعيداً عن كل هذه الأشياء، أعني: هذا الشيء الذي حرَّمه الله سبحانه وتعالى ليس معناه أنه سيحد من تنمية رأس مالك أبداً، ممكن أن يملك أيُّ إنسان من المسلمين أموالاً كبيرة، لكن عليه أن يعرف كيف تكون نظرته للمال، وما هي المسؤوليات والحقوق المرتبطة بهذا المال، وأن يظل دائماً متذكراً لنعمة الله.

وضَرَبَ الله مثلاً من أرقى الأمثلة بمن ملكوا من مظاهر الدنيا والأموال ما لم يملكه أحد، نبي الله (سليمان) عليه السلام تجد كيف كانت تصرفاته، كيف كانت حركته، كيف كانت حتى حركة جنوده ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالأِنسِ وَالطَّيرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾(النمل:١٧) كان يملك أموالاً رهيبة، ويمتلك مُلْكاً لم يتوفر لأحد من بعده على الإطلاق إلى الآن، ليست سيطرة فقط على الإنس، بل أيضاً على الجن، وعلى الطير، وكثير من المعادن سُخرَت له، لكن تجد كيف هو شخصية متزنة، شخصية هادئة، شخصية حكيمة، يمتلك هذا الْمُلك الرهيب وتراه كيف يحاسِب على النملة الواحدة لا تدوسها قدمه! أليس هذا إنساناً متزناً، إنساناً ثابتاً؟ المرابون يدوسون الناس، يدوسون اقتصاد البلد، يتخبط – كما قال الله – قلنا هذا المثل من أعلى الأمثلة للشخصية غير المتزنة، للشخصية الفاقدة للحكمة وللاتزان وللحركات الطبيعية.

سليمان على الرغم من ذلك المظهر المهيب بعد أن سمع كلام النملة ماذا قال؟ ﴿رَبِّ أَوزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ لأن الإنسان المؤمن مهما امتلك من الدنيا سيظل دائماً يرى بأن هناك ما هو أرقى وأفضل هو: أن يعمل صالحاً؛ ليحصل من خلاله على رضا الله، وليدخله الله بعمله الصالح في عباده الصالحين ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾(النمل:١٩) أصحاب النفوس الجشعة، المرابون لم يعد يتذكر أن هناك شيئاً يُعتبَر أرقى من المال، أو شيئاً هو أعظم من المال، أو أهم من المال أبداً، أليس نبي الله سليمان هنا لديه نظرة بأن هناك ما هو أعظم من كل ما أوتي هو ماذا؟ ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ بحيث يجند كل ما لديه من مظاهر الْمُلك، وكل ما بحوزته من الأموال الكثيرة جداً في أن ماذا؟ في أن يعمل بها أعمالاً صالحة؛ لأن العمل الصالح في ذهنيته في نفسيته هو الشيء المسيطر على مشاعره، وهو الشيء الذي يراه أعظم وأهم من كل ما لديه من مظاهر هذه الدنيا.

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾(البقرة:٢٧٥) هل هذه قضية حقيقية أو أنها – كما يقال – مسايرة لذهنية عربية؛ لأنهم يعتقدون أن مَن هو مصروع أن الشيطان مسَّه، أن تلك الحالة هي من مس الشيطان؟! القرآن – عادةً – لا يساير، هذه قاعدة: لا يساير، في حالة مُعيَّنة عندما يصبح الشيء، يصبح إطلاق لفظة مُعيَّنة عليه (علَمٌ) عليه، اسم له بالتغليب لم يعد يلحظ مسألة الاشتقاق، أو لم تعد تلحظ الفكرة التي انتزعت منها الكلمة مثل كلمة (مجنون) مثلاً، كلمة (مجنون) قد تكون في الأصل – مثلاً – على أنه مسه جن، الذي نسميه مجنوناً: أنه مسه جن؛ فأصبح على هذه الحالة التي نسميها جنوناً، لكن أصبحت العبارة هكذا (مجنون) حتى أصبحت اسماً للإنسان الذي يعاني من هذه الحالة التي تسمَّى جنوناً، هنا تصبح القضية باعتبارها اسماً طبيعياً أن تقال.

هنا في هذه قد لا يبعد أن يكون هناك شيء حقيقي يأتي من جانب الشيطان مس كما حكى الله عن نبيه (أيوب) عليه السلام ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾(ص:٤١) أو أن تكون هذه عند العرب تمثيلاً لحالة مُعيَّنة أصبحت تتكرر لديهم حتى أصبحت وكأنها اسم، ليس هناك مسايرة نقول: توهم عند الذهنية الجاهلية لقضية مُعيَّنة فيأتي القرآن الكريم يسايرها! لا، هذه لا تحصل. فظاهر هذه العبارة أنه لا يبعد فعلاً أن يكون هناك من جانب الشيطان مس يصل بالإنسان منا إلى حالة كهذه، أو أن تكون المسألة أصبحت مشابهة تماماً كلمة (مجنون).

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾(البقرة:٢٧٥) لأنهم جشعون في المال وطماعون، ولم يعد عنده أيُّ شيء سوى المال متى ما قدِّم إليه نهيٌ عمَّا هو عليه قال: هي نفس المسألة ﴿الْبَيعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ لا يبقى أيُّ قيمة لتوجيهات الله سبحانه وتعالى ولا لأيِّ نهي، ينطلق هو ليرد: (لا، المسألة واحدة البيع مثل الرِّبا) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ تلك العقوبة، وتلك الحالة التي يصلون إليها، وهذه حالة بالنسبة للمال: أن المال عندما لا يسير الإنسان فيه على ما وجَّه الله الناس إليه في جانب التعامل مع المال يصبح المال نفسه عذاباً لك يضرب نفسيتك، يضرب حكمتك، يضرب اتزانك، بل يُشوِّه من شكلك! بعض أصحاب رؤوس الأموال تراهم لم يعودوا أناساً طبيعيين، ولم يَبْقَ لهم ثقل إلاّ عند الجشعين من أمثالهم فقط، يتحول إلى عذاب، فتلك الحالة التي هم فيها هي بأنهم رفضوا وقابلوا نهي الله عن الرِّبا وتحريمه له بمقولة أخرى أنه: ﴿إِنَّمَا الْبَيعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ لكن يجب أن يفهموا بأن الله هو الذي له الحكم، وله الأمر، هو الذي يعلم بالأشياء، ويعلم بالفارق ما بين البيع: التجارة الطبيعية، وما بين الرِّبا. ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾(البقرة:٢٧٥) هو الذي أحل البيع، إذاً هو الذي حرَّم الرِّبا. فتحرك بالنسبة للمال على هذا النحو الذي أحله وابتعد عمَّا حرَّمه.

﴿فَمَن جَاءَهُ مَوعِظَةٌ مِن رَبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(البقرة:٢٧٥) تهديد عظيم على هذا التعامل السيئ: الرِّبا، الإعراض عمَّا يجب أن يكونوا عليه في قابلية نهي الله عن الرِّبا.

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾(البقرة:٢٧٦) تَقدَّم في الآيات الأولى مثال: أن الله يربي الصدقات، أي: يُنمِّيها ويكثرها، ويجعل لها أثراً كبيراً في نفسك، وفي أجرك، وأثرها في واقع الحياة عندما قال هناك: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَينِ فَإِن لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(البقرة:٢٦٥).

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾(البقرة:٢٧٦) إذاً سمَّى المرابين أنهم أصحاب النار، وأن ما هم عليه سيمحقه، وأنهم كما قال هنا: ﴿وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ كافرين، آثمين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوفٌ عَلَيهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِين * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾(البقرة:٢٧٧- ٢٧٩) إذاً أليست هذه ناحية عملية؟ هناك بَيَّن ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾(البقرة:٢٧٥) حرم الرِّبا، هل انتهت المسألة إلى هذه، أو أن هناك موقفاً عملياً؟ ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ هذه واحدة إضافة إلى هذه: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

إذاً هذا هو الفقه الحقيقي، هذا هو الفقه المتكامل، ليس فقط إصدار فتاوى في القضايا: بأن هذا حرام، وهذا محرَّم، وهذا منهيٌّ عنه وانتهى الموضوع! بل يجب أن نفقه، أن نعرف الفقه العملي لتغيير هذه الأشياء المحرمات وإزالتها ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ فإن لم تذروا ما بقي من الرِّبا وتقتنعوا برأس المال فقط ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ هذا إعلام، إشعار! إذاً فهناك حالة من الحرب قائمة فيما بينكم من جانب، والله سبحانه وتعالى ورسوله من جانب آخر ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وبكل تأكيد عندما يكون الله هو حرب لك، ورسوله حرب لك فإنك أنت المهزوم، والخاسر. حرب من جهة الله، وهي عندما يتأمل الإنسان واقع البشر الآن فعلاً تلمس أن هناك حرباً إلهية للناس؛ لأن تعاملهم في الغالب في أكثر هذه الدنيا قائم على الرِّبا! فتجد حالات من الغلاء الرهيب، حالات من الكساد التجاري عند الدول المصنّعة، عند الدول الغنية! غلاء شديد، وكساد لكثير من التجارات، لكثير من الصناعات بشكل رهيب!

الحرب من جانب رسوله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) شيء آخر، الإشارة إلى أن الحرب من جهة الله وحرب مِن جهة مَن يكونون معنيين بإقامة الدِّين، وهناك بالنسبة لرسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) كان هناك إجراءات

مُعيَّنة يتخذها هو فيما يتعلق بالمرابين عندما لا يمتنعون، وفعلاً أعلن ((أن كل رِبا تحت قدمي هاتين)) ألم يُعلِن؟ وألغاه تماماً، صادره، أليس هذا حرباً؟ أعلن مصادرته لكل النِسَب الزائدة على رأس المال، إذاً فهل كان رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) مجرد مفتي، أو كان يعمل؟ ينهى ويعمل وليس فقط يصدر فتاوى، الفتاوى كثيرة وأحياناً الكتب الفقهية التي نقراها في موضوع الرِّبا كثيرة، قد تقرؤها في مسجد وما بينك وبين البنك الذي يتعامل بالرِّبا إلاّ أمتار، هذا المبنى الطويل العريض يتعاملون فيه بالرِّبا وتخرج الأموال منه إلى كل جيب مصبوغة بالرِّبا، فيكون حتى مَن يدرِّس نفسُه قد يكون في جيبه فلوس قد يكون قيمة الكتاب، قد يكون قيمة فِرَاش المسجد، قد تكون كلها مصبوغة بربا! ويكون في نفس الوقت يدرِّس عن أنواع الرِّبا وأصنافه، ويبيِّن فظاعته ((لَدِرهمٌ مِن رِبا أشد عند الله من أربع وثلاثين زنية)) نعوذ بالله!

﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾(البقرة:٢٧٩) لا تظلِمون الآخرين فتأخذون زيادة على ما أعطيتموهم كقرض، ولا تُبخسون أنتم من حقكم شيئاً، لا تُنقصون من رؤوس أموالكم شيئاً.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيسَرَةٍ﴾ إذا كان الطرف الذي عليه دين في حالة إعسار فيجب إنظاره إلى حالة يُسْر ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة:٢٨٠) فيعتبر هذه هي حالة تصدُّق، الإنظار حالة تصدُّق، مقابل فظاعة الرِّبا جعل الله على القرض أجراً كبيراً عندما يُقرِض الإنسانُ إنساناً آخر لأنه محتاج، أو تُقرِضه على أساس أن يعمل له رأس مال ويتجه ليبيع ويشتري، فجعل القرض كل يوم صدقة؛ ليشجع الناس على الابتعاد عن الرِّبا، فالنفوس المؤمنة، النفوس التي تطمع في أجر الله وثوابه، وتطمع فعلاً في أن يُكثر أموالهم بطريقة أكثر وأحسن من أن يكثرها عن طريق الرِّبا كما قال هناك: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾(البقرة:٢٧٦).

﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وخير لكم حتى فيما يتعلق برأس المال، حتى فيما يتعلق برؤوس أموالكم، أن الحلال، أن التعامل في المال بعيداً عن الرِّبا، بعيداً عن المعاملات المنهي عنها سبب هام جداً من أسباب تنميته وتكثيره. إذاً فأفضل للإنسان أن يكثر ماله وينمو بطريقة حلال ويترافق معها أيضاً أن يتضاعف أجره عند الله، ولا أن ينمو المال ويبدو أمامه مجرد أرقام ولكنها ممحوقة، الله سبحانه وتعالى هو بكل شيء عليم، هو على كل شيء قدير، يستطيع بطريقة مُعيَّنة أن يبقى المال مجرد أرقام أمامك ويمحقها، تعيش في حالة تكون أشبه شيء بحالة الفقير، كوارث مُعيَّنة تهبِّط هذه الأرقام التي تعمل أنت على تجميعها من الرِّبا!

عندما تلاحِظ في هذه الآيات التشنيع الكبير على الرِّبا، هذا مما يُعتبَر من أبرز الأدلة على أن دين الله سبحانه وتعالى يتناول كل شيء، ودينه وتشريعه في هذا الدِّين يمثل رعاية للناس؛ لأن الرِّبا فيه أضرار اقتصادية كبيرة، ويؤدي إلى خلق تباين فيما بين النفوس، متى يمكن أن تقدِّر لهذا الشخص ما قدَّمه لك وأنت تعرف أنه يريد من وراء ما قدَّمه لك أرقاماً إضافية يعطيك مثلاً: مائة ألف، ولازم أن تعطي في كل سنة ١٠٪ زيادة، ثم يأتي بعد فترة وإذا بالمائة ألف قد تحولت إلى ثلاثمائة ألف كيف ستكون مشاعركَ نحوه؟!

فالرِّبا خطير جداً؛ لأن المال له دور كبير، وقدِّم على أساس أن يكون له دور كبير فيما يتعلق بصلاح النفوس، فيما يتعلق ببناء المجتمع من أناس متآلفين، رحماء فيما بينهم، يعطف بعضهم على بعض. فالرِّبا نفسه يحطم النفوس، يحطم العلاقات فيما بين الناس. أليس هناك فارق عندما يأتي شخص يقرضك قرضاً ولا يريد منك إلاّ ما قدَّمه لك فقط وفي موعده، فإذا جاء موعده وأنت مُعْسِر أعطاك أجلاً آخر، أو قسَّط لك على آجال متعددة، أو شخص يعطيك مبلغاً مثله مرتين ويريد منك زيادة ٥٪ أو ١٠٪ في كل سنة على ما أعطاك كيف ستكون مشاعركَ نحو هذا ونحو ذاك؟ أليس الفارق كبيراً جداً؟

ولهذا في الأخير يتحول المجتمع كما يقولون إلى فئتين: فئة أصحاب رؤوس الأموال المفصولين عن المجتمع تماماً لا رحمة ولا عاطفة ولا يلحظ في نفسه ما يسمَّى فعل خير أبداً، وطبقة المجتمع الفقيرة المغلوبة هذه أيضاً ترى نفسها في وضعية تتمنى أن تتحطم تلك الأموال، وأن تتهدم تلك البنايات، وأن تتفجر تلك المصانع، وأشياء من هذه! أليس هذا يوجد تبايناً فيما بين النفوس؟ لأن العلاقة الحسنة فيما بين الناس وما بين أصحاب رؤوس الأموال وما بين الفقراء وأصحاب الحالات المتوسطة قضية هامة جداً في تنمية المجتمع، في نمائه من الناحية الاقتصادية قضية هامة، وفي نفس الوقت في بقائه مجتمعاً قادراً على أن ينهض بمسؤولياته في مختلف القضايا: في مجال إعلاء كلمة الله، في مواجهة أعداء الله.

فتحريم الرِّبا والتهديد للمرابين وإعلان الحرب أليس في هذا ما يدل على أن هذا الدِّين يهتم جداً بالناس، أنه رعاية للناس، أنه رحمة للناس؟ أي: هل موضوع الرِّبا هذا فيه ضر على الله سبحانه وتعالى؟ لا، لكن فيه إضرار بالناس، والله جعل كتابه رحمة للعالمين، وجعل رسوله رحمة للعالمين، فدينه كله بكتابه ورسوله وكل ما يهدي إليه رحمة للعالمين في كل المجالات بما فيها الجانب الاقتصادي، جانب المعيشة، جانب المال، لم يقل: (هذه دنيا) هل هنا مسألة: (هي دنيا)؟ بل يعلن حرباً شديدة على المرابين، والرِّبا هو في موضوع المال، أليس موضوع دنيا؟ لأن فيه إضراراً بالآخرين، لم يقل للآخرين: (اصبروا وما عليكم شيء، وما هي إلاّ دنيا) بل يجب أن يتوقفوا؛ ولهذا قام رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) وأعلن بأن ((كل رِبا تحت قدميَّ هاتين)) كما قال، وأول ربا يضع ربا العباس بن عبد المطلب عمه؛ لأنهم كانوا يتعاملون سابقاً في الجاهلية بالرِّبا، ألغاه وصادره، قد صار مُصادَراً.

عندما تجد هنا في موضوع الرِّبا فيما يتعلق بالتعامل فيما بين الشعوب نفسها، شعب من الشعوب يقترض مبالغ وتكون على هذا النحو: فيها ربا فلا تدري إلاّ وقد صارت الزيادات التي هي الرِّبا وحده، قد صارت أكثر من المبلغ الأصلي (الرئيسي) الذي استلمه أو حوَّل له بشكل مواد أخرى، لم يَعُد الناس يستطيعون أن يتخلصوا منه! الآن معظم الشعوب العربية مليئة بالديون، ترى ما يمثله رأس المال الحقيقي (المبلغ الحقيقي) لم يعد يُعتبَر إلاّ ربما نصف أو أقل من النصف! صارت الزيادة تلك الأرقام الكبيرة التي تصبح مليارات الدولارات كلها ربا كلها الزيادات التي في كل سنة، نسب مُعيَّنة.

﴿وَاتَّقُوا يَومًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾(البقرة:٢٨١) هذا تذكير باليوم الآخر سيلقى جزاءً حاصلاً، معظم آيات بقية (سورة البقرة) حول موضوع المال فيما يتعلق بالتعامل معه وكيف أثر المال.

يذكر أيضاً في التعامل فيما بين الناس، في التدايُن أنه يجب أن يكون هناك إشهاد وأن يكون هناك كتابة، والكتابة تكون كتابة صحيحة، كتابة بالنطق، نطق الشخص المدين: (أنا فلان عليَّ لفلان مبلغ كذا، كذا، كذا وشهادة فلان وفلان) وهكذا، تجد هذه القضية فيما يتعلق بكثير من المعاملات المالية الضوابط فيها؛ لتحافظ على أن يكون الناس بعيدين عن الشقاق والاختلاف والعداوة والبغضاء فيما بينهم، سواءً فيما يتعلق بالتعامل مع المال، أو فيما يتعلق بالتعامل فيما بينهم تعاملاً مالياً.

يجب أن يكون هناك كتابة في التدايُن وأن يكون هناك إشهاد، من قيمة الكتابة أنها تكون أقوى من الشهادة، بعد فترة فيما لو حصل نوع اختلاف أو شيء وقرأ عليك المكتوب أنت تذكرت أنت كشاهد، فإذا لم تكن سوى قضية هكذا في الذهنية لم يعد هناك كتابة قد تكون شهادات الشهود مختلفة، أو لم يعد يذكر الواحد الشهادة بشكل كامل، فلأجل ألاَّ تضيع الحقوق (حقوق الناس) ولئلا يتحول التعامل فيما بينهم وسيلة للخلاف والشقاق – ولأن التعامل المالي فيما بين الناس قضية ضرورية – يجب أن يكون هناك ضوابط، وضع الضوابط، وهذا هو هدى الله سبحانه وتعالى يتناول كل قضية؛ ولهذا قال: ﴿وَلاَ تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ﴾ بعدما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَينَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ ثم يقول بعد: ﴿وَلاَ تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَو كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا﴾ أقرب إلى ألاّ ترتابوا فيحصل إضرار وشك في بعضكم بعض سواءً شك في القضية كيف حقيقتها أو شك في بعضكم بعض (بأن هذا يريد أن يأخذ مالي أو يريد أن يضيِّع حقي) وأشياء من هذه، إلاّ في حالة واحدة: في حالة الحركة التجارية المتبادلة، البيع الناجز، المعاطاة في القضايا اليومية، مثلما يعمل أصحاب الدكاكين وغيرها فلا تحتاج إلى أنه (فلان باع من فلان – مثلاً – علبة حليب أو علبة سمن) وأشياء من هذه، لا تحتاج لهذه، هي هذه: ﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَينَكُمْ فَلَيسَ عَلَيكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾(البقرة:٢٨٢) يكون هناك إشهاد، يكون هناك تبايع في حضور، يكون التبايع فيما بين الناس في أجواء فيها آخرون، يكون هذا حاصلاً في الغالب فيما يتعلق بالدكاكين والأسواق.

ونهى عن المضارَّة للكُتّاب وللشهداء، نهى عن كتم الشهادة، إذا لم يكن هناك إمكانية للكتابة فليكن هناك رهن، في موضوع الرهن يجب أن تعرف بأنه عبارة عن أمانة، إذا لم يكن هناك رهن فهناك ائتمان فيما بينكم ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾(البقرة:٢٨٣).

المفروض في هذه التوجيهات الهامة – لأن الله قال فيها: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ﴾(البقرة:٢٨٢)

– أن تُراعَى من جانب الناس في كل أعمالهم التجارية، في كل معاملاتهم المالية (الكتابة والإشهاد) إلاّ فيما يتعلق بحركة السلع المتبادلة في التجارة ﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَينَكُمْ فَلَيسَ عَلَيكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ وأدنى شيء أن يكون في ظل حضور آخرين واحد أو اثنين أو أكثر من أجل الإشهاد يكون هناك حضور.

كتمُ الشهادة جعله جريمة كبيرة ﴿وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ لأن كتمَ الشهادة يؤدي إلى ضياع الحقوق بشكل تبقى النفوس متباينة، ويبقى الاختلاف قائماً فيما بين الناس؛ فلا يجوز للإنسان أن يكتم الشهادة ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾(البقرة:٢٨٣) كتم الشهادة قد يدنس قلبك، يتحول إلى قلب آثم، مظلم، مسودّ، يقسو؛ لهذا كتم الشهادة هنا في هذه الآية يُبيِّن أن لها أثراً سيئاً جداً فيما يتعلق بقلبك، بدلاً من أن يكون قلباً مستنيراً قلباً صالحاً يتحول إلى قلب آثم؛ لأن الشهادة هي عمل من أعمال القلوب، شيء تتذكره أنت، شيء محفوظ لديك.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾(البقرة:٢٨٤) يُبيِّن سبحانه وتعالى في كثير من الآيات بعد كل عدة توجيهات على اختلاف أنواعها يُبيِّن بأنه: هو له ما في السموات وما في الأرض؛ فهو الذي له الحق أن يهدي الناس، وأن يشرِّع للناس، وأن يرسم طريقة التعامل فيما بين الناس، وهذا التعامل نفسه الذي يوجههم إلى أن يكونوا عليه فيما يتعلق بالمال ليفهموا أنه يوجههم إلى تعامل حسن فيما هو من عنده هو، فالمال هذا كله هو له، إذاً فيجب عليك أن تُراعي هذا التعامل؛ لأن هذه التوجيهات تأتي مِن جهة مَن له ما في السموات وما في الأرض، لا تقل: (هذا حقي، لا دَخْلَ له أن يملي عليَّ إملاءات أخرى ويشرِّع لي أشياء، هذا هو حقي، وهذا أنا الذي خلقته وأنا الذي أبدعته) لا، كل ما في أيدي الناس هو من الله وهو له ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَو تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾(البقرة:٢٨٤) ما زال تابعاً لموضوع كتم الشهادة، فيما يتعلق بالكتابة والشهادة.

﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا هو التشريع المتكامل الذي يكون فيه ثواب وعقاب، ويرسم طريقة مُعيَّنة، يرسم تعاملاً مُعيَّناً، يوجه إلى أشياء مُعيَّنة ثم يُبيِّن ما وراء الالتزام بها، ما يعطي من ثواب في الدنيا وفي الآخرة، ويُبيِّن ما يترتب على المخالفة من عقاب في الدنيا وفي الآخرة، لأنه هو الْمَلِك، هو مَلِك الناس، وكل ما في السموات وما في الأرض هو له، ولأن هذا هو الشيء الطبيعي والشيء الذي لا بُد منه أن يكون هناك ثواب وعقاب وراء كل منهج يُقدَّم من جهته سبحانه وتعالى، ليست هكذا قضايا طوعية، لا بُد من التزام، وقضية الثواب والعقاب هي قضية فطرية عند البشر، وقضية الكل مسلِّمون بها، قضية ليس فيها شك، لا يوجد أيُّ دولة تعمل دستوراً، وتعمل قوانين إلاّ وتلحظ فيه باباً خاصاً بالعقوبات، باباً للعقوبات؛ لأنها قضية لا بُد منها في موضوع أن يكون هناك التزام بتلك الأشياء التي تُرسَم وتُقنن.

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيهِ مِن رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾(البقرة:٢٨٥) تنتهي المسألة كلها إلى إيمان بالله سبحانه وتعالى. إذا كان لديك إيمان بالله سبحانه وتعالى فهو الذي يدفعك إلى أن تعمل بتوجيهاته، تعمل بِهُداه، تلتزم، تخاف من عقوبات مخالفتك، ترغب إليه فيما وعد من ثواب، الالتزام بما هدى إليه، وليُبيِّن بأنه بالنسبة للرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) هو الرجل الكبير لا يوجد أحد فوق قانون الله، كثير من القوانين في هذه الدنيا يرى الكبار أنفسهم فوقها، يرى المسؤولون الكبار أنفسَهم فوقها، القوانين كلها فقط لهؤلاء الناس أمَّا هو فيمكنه أن يتجاوزها! لكن لا، دين الله تشريع الله، تجد الكبار فيه – وأكبر الكبار فيما يتعلق بالبشر هم الأنبياء – مؤمنين هم، ملتزمين هم، وهذه قيمة كبيرة جداً فيما يتعلق بهذا النظام، بهذا التشريع الذي رسمه الله سبحانه وتعالى كيف أنه يُلزم الكل بما فيهم، في مقدمتهم الأنبياء (رُسُله).

وهذه هامة جداً فيما يتعلق بأفراد الناس لأنكَ عندما تكون في بلد مُعيَّن فيه تقنين أن القانون فقط يُطبَّق عليك أمَّا الكبار فلا يُطبَّق عليهم! أليست هذه القضية تغيظك وتجعلك تنفر من هذا التقنين وتَعتبِر أن هذا شيءٌ لا قيمة له وتعتبره نوعاً من الظلم لك؟ لكن لا، تشريع الله سبحانه وتعالى يكون على هذا النحو: مُلزمٌ أن يؤمن به الرجل الذي جاء به والذي دعا إليه والذي بلغه للناس (رُسُله).

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيهِ مِن رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَينَ أَحَدٍ مِن رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيكَ الْمَصِيرُ﴾(البقرة:٢٨٥) أي: كلٌّ من الرسول والمؤمنين مؤمنون على هذا النحو، الإيمان الكامل، الإيمان بعنوانه الواسع: ﴿بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾. مسألة الإيمان بكتبه ورسله

السابقين قضية هامة، هي فيها إقرار بأن الله سبحانه وتعالى هو الْمَلِك والإله للناس، وليس فقط مِن الآن بدأ يشرِّع، من قبل ألف وأربعمائة وكم سنين بدأ ينزل كتاباً وبدأ يرسل رسولاً، لا، هذه هي سُنته، هو مَلِك للناس، وإله الناس من يوم ما استخلف الناس على هذه الأرض هو الذي يشرع لهم، فهي إقرار بملكه بألوهيته على كل عباده من الماضين والحاضرين وممن سيأتي.

﴿لاَ نُفَرِّقُ بَينَ أَحَدٍ مِن رُسُلِهِ﴾ كما فرَّق الكثير، أو أهل الكتاب – تقريباً – يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض. هذه الآية فيها – إذا صحت العبارة – تعليم كيف يجب أن يكون الإيمان، وكيف مشاعر المؤمنين، وكيف دعاء المؤمنين، وكيف توجُّههم، هم هكذا بدءاً من الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) يؤمن ﴿بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَينَ أَحَدٍ مِن رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ سمعنا وأطعنا: تقبَّلنا ومستعدون أن نلتزم بما شرعته لنا، بما وجَّهتنا إليه ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيكَ الْمَصِيرُ﴾ نحن نطلب غفرانك ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ فاغفر لنا ما قد يحصل من تجاوزات بعد أن قلنا: سمعنا وأطعنا، فاغفر لنا ﴿وَإِلَيكَ الْمَصِيرُ﴾ نحن نؤمن ونستشعر ما نؤمن به من أن إليك مصيرنا.

﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾(البقرة:٢٨٦) فكل تشريعه وكل هدايته سبحانه وتعالى لا تكون من الأشياء التي تُعتبَر حتى إلى أقصى طاقة لديك أو شيء تستطيع أن تقوم به لكن يبدو مرهقاً جداً بالنسبة لك، لا، كل تشريعاته، كل هداياته كلها تكون في داخل دائرة الوسع، بمعنى أن ما قد كلفنا أن ننهض به، أن نلتزم به، أن نسير عليه هو مما في وسعنا أن نعمله، وكل نفس ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ وهذه قُدِّمت بشكل إقراري، إقرار من جانب المؤمنين قُدِّمت العبارات، أي: هكذا ينبغي أن يكون المؤمنون، ويقول المؤمنون، فتكون نظرتهم إلى ما شرعه الله سبحانه وتعالى أول شيء: سمع وطاعة، ثم اعتبار بأنه فعلاً ليس فيه ما يجهدنا، وليس فيه ما يُنهك قوانا، هو لا يزال في وسعنا.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَسِينَا أَو أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَينَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾(البقرة:٢٨٦) ما زال لديهم معرفة فيما يتعلق بآثار المخالفة التي تحصل من جانبهم، تجد في تاريخ بني إسرائيل كان بسبب مخالفات مُعيَّنة، بسبب نقض الميثاق، بسبب تعدٍّ منهم، بسبب عصيان يحصل من لديهم بعدما تكرر النهي والتبيين لهم، تأتي تشريعات فيها قسوة بالنسبة لهم: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾(النساء:١٦٠).

فإذا كانت المسألة بالنسبة لنا لم يعد هناك وحي نقول بأنه سيأتي تشريعات قاسية، تأتي التزامات واقعية قاسية، تكون في واقعها قاسية من النوع الذي حكاه الله عن المخلَّفين من الأعراب ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَونَ إِلَى قَومٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَو يُسْلِمُونَ﴾ أليس هذا فيه إلزام وفيه نوع من القسوة عليهم عندما تخلَّفوا عن القتال مع الباقين قتال الحاصلين (الحاصل) من الأعداء؟ قد يكون بعضهم عاديين تكون العقوبة أن يُلزَموا على هذا النحو: ﴿سَتُدْعَونَ إِلَى قَومٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ إذاً أليست هذه واحدة من الأشياء القاسية ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَو يُسْلِمُونَ﴾؟ باستمرار ﴿فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوا كَمَا تَوَلَّيتُم مِن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(الفتح:١٦).

هذه القضية لم يُغلَق ملفها، أي: لا يُتصور بأنه ما دام أنه لم يعد هناك وحي يأتي من جهة الله، ونبي من جهة الله يشرع تشريعات لكل زمان فتأتي أشياء تبدو قاسية، الله هو حي قيوم وفي نفس الوقت قد تطرأ أشياء تمثل قسوة في حياة الناس بسبب تفريطهم، بسبب عدم التزامهم، عدم اهتمامهم، قد تحصل أشياء في واقع حياتهم يُؤاخَذون على التفريط بها، وتبدو في نفس الوقت فيها مما يُعتبَر وضعية صعبة.

﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَسِينَا أَو أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَينَا إِصْرًا﴾ والإصر: العبء الذي يأصرك، أي: لا تستطيع أن تنهض به إلاّ بجهد جهيد ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ هي قريبة من موضوع الإصر. ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَولاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَومِ الْكَافِرِينَ﴾(البقرة:٢٨٦) لاحِظ هنا المؤمنين لديهم شعور بمسؤولية أمام الكافرين بدين الله، أمام أعداء الله، موقف عملي، هم يدعون الله أن ينصرهم، و﴿أَنتَ مَولاَنَا﴾ نلتجئ إليك ونعتصم بك ونستعين بك ونتوجه بطاعتنا لك ونطلب منك أن تعفو وتغفر وترحم...إلخ، وبما فيها أن تنصرنا على القوم الكافرين.

مثل هذه الأدعية هي أدعية هامة جداً يحاول الإنسان أن يتعود – في قنوت الصلاة: قنوت الفجر، وقنوت الوتر – على أن تكون أدعيته مجموعة من الأدعية الهامة داخل القرآن الكريم.

(سورة آل عمران)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الم * اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾(آل عمران:١، ٢) هذه العبارات تتكرر كثيراً في القرآن الكريم: بأن الله سبحانه وتعالى هو الإله الذي ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ الذي يَأْلَهُ إليه الناس، وهو ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ كما قال في آية الكرسي: ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَومٌ﴾(البقرة:٢٥٥) هو قيوم السموات والأرض، هو الحي الذي لا يموت، والقيوم بشؤون عباده، القيوم بتدبير شؤون السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ﴿نَزَّلَ عَلَيكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾(آل عمران:٣) هذا مظهر من مظاهر قيوميته أن ينزل منهجاً، وينزل كتاباً فيه هدى للناس، فيه تشريع للناس ﴿بِالْحَقِّ﴾ لأنه الإله لأنه إله الناس، لأنه الحي القيوم، هو الْمَلِك، فنزل عليك الكتاب.

يأتي الحديث في موضوع تنزيل الكتاب بعد آيات كثيرة أحياناً بعد ﴿تَنزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾(فصلت:٢) وأحياناً بعد آيات كهذه، بعد حي قيوم، وكثيراً تجد بأنه من منطلق أنه رحيم، أنه رحمن رحيم ينزل هذا الكتاب، نزّل هذا الكتاب؛ لأنه الإله والحي القيوم، هذا الكتاب له أهمية يُعتبَر مظهراً من مظاهر رحمته، هذه الهداية، هذا التشريع، إنزال الكتاب بما فيه من هدى وتشريع للناس مظهر من مظاهر رحمته، مما تقتضيه حكمته، مما يُعتبَر مظهراً من مظاهر قيوميته، مما يُعتبَر ممارسة – إن صحت العبارة – أو تدبيراً من تدبيره لشؤون خلقه باعتباره مَلِكهم، وإلههم، وهكذا، وتنزيله بالحق، ونزل بالحق كما قال في آية أخرى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾(الإسراء:١٠٥).

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَينَ يَدَيهِ وَأَنزَلَ التَّورَاةَ وَالإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ﴾(آل عمران:٣، ٤) إنزاله لهذا الكتاب هو في إطار السُّنة الإلهية التي هي ماذا؟ تقتضيها قيوميته سبحانه وتعالى أنه الإله الحي القيوم فنزّل من قبل التوراة، والإنجيل، وكتباً أخرى، هو بعث من قبلك رسلاً آخرين، فليست قضية جديدة أن يقول الناس (لماذا نحن يبدو أن هناك التزاماتٍ مُعيَّنة وتشريعاً مُعيَّناً) وكأنه ليس هناك شيء من قبل! لا، هذه سُنة الله من أول ما أنزل آدم إلى الجنة وقال له أن يسكن هو وزوجته فيها يأتي توجيهات من لديه يعلِّمه ويعلِّم الناس جميعاً من بعده، (بنيه) لأن الإنسان لا يُترَك في هذه الدنيا دون أن يكون هناك توجيه من الله، هدى من الله، تشريع من الله سبحانه وتعالى.

﴿وَأَنزَلَ التَّورَاةَ وَالإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾(آل عمران:٣، ٤) ما يُعتبَر فرقاناً بين الحق والباطل، يشمل القرآن الكريم، وفي آيات أخرى سمَّى التوراة فرقاناً. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾(آل عمران:٤) لأنه أنزله بالحق هدى للناس وفرقاناً بين الحق والباطل، فمن يكفر بآيات الله التي جعلها على هذا النحو، وهي كل آياته سبحانه وتعالى فهناك وعيد ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ وكلمة ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ عندما تطلَق تشمل العذاب الذي يأتي في الدنيا وفي الآخرة ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا أحد يستطيع أن يمنع نفسه منه، لا يمكن أن يلتجئ إلى أيِّ طرف آخر يمثل منعة له من الله أبداً، يستطيع أن يعذب من يكفر بآياته، من يرفض آياته، من يعارضها، من يخالفها ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ هو دائماً ينتقم، أي: هو رحمن رحيم رؤوف رحيم لكنه شديد العقاب كما قال سبحانه وتعالى عن نفسه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾(الحجر:٤٩، ٥٠) ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾(غافر:٣).

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيهِ شَيءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾(آل عمران:٥) ليكن كل إنسان فاهماً – عندما يكون كافراً بآيات الله، عندما ينطلق في أعماله مخالفاً لهدى الله سبحانه وتعالى – أنه لا يخفى على الله شيء من عمله، إضافة إلى أنه لا يخفى عليه شيء مما له علاقة – وتقريباً كل شيء له علاقة – بهداه الذي تضمنته آياته، والذي جاء به رسله؛ لأنه سبحانه وتعالى عندما يشرع لا يشرع شيئاً وهو ناسٍ بأنه ربما هذا التشريع هناك في واقع الحياة ما يمكن أن يحول بينه وبين أن يُطبَّق كسُنن ثابتة، هو سبحانه وتعالى شرَّع، هو الذي هدى، هو الذي نزل الكتاب، وهو الذي خلق الأرض، وخلق السموات، وخلق الإنسان، ورسم قوانين، وفطر الإنسان على الفطرة التي هو عليها، ورسم قوانين هذا الكون على ما هي عليه.

فعندما يأمر الناس أن يكونوا أنصاراً له، أليس الأمر جاء قبل ألف وأربعمائة سنة قبل أن يكون هناك أمريكا؟ فعندما يقول: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾(الحج:٤٠) هو لا يخفى عليه بأن أمريكا وبريطانيا وإسرائيل ستأتي بعد، فوعْدُه وعْدُه.

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيهِ شَيءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيفَ يَشَاءُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ

﴿هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(آل عمران:٥، ٦) كما قال في آية أخرى: ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(الملك:١٤) ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ﴾(آل عمران:٦) هو الذي خلقكم، هو الذي يعلم بكل شيء، فعندما ينزل الكتاب، إنزال كتابه، ما في كتابه من هدى، ما وجَّه الناس إليه، هو من منطلق أنه يعلم، يعلم كيف يهدي، يعلم كيف يرشد، يعلم الوسائل التي تجعل لهذا الإرشاد أثره، يعلم الطرق التي يقوم بها دينه وهداه، يعلم كل ما يمكن أن يحدث في هذه الأرض.

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ * رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَدُنكَ رَحْمَةً﴾ هذا من قول الراسخين في العلم حكاه الله عنهم إلى أن قال عنهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَومٍ لاَ رَيبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾(آل عمران:٧-٩).

قال هناك في البداية: ﴿نَزَّلَ عَلَيكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾(آل عمران:٣) ثم قال بالنسبة لهذا الكتاب: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾(آل عمران:٧) أصله ومرجعه ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ موضوع المحكم والمتشابه في القرآن قضية تعددت الأقوال فيها بشكل كبير، إلى الآن لا يوجد استقرار لقول - فعلاً - يُطَمْئن أنه تفسير حقيقي لمعنى (مُحْكَم ومتشابه) وبالذات المتشابه، لدرجة أن بعضهم قال: هذه الآية بكلها متشابهة! لشدة ما حصل من أقوال متعددة حولها، كل الأقوال التي تأتي في هذا الموضوع بعضها تكون منطلقة مِن فَهْم مُعيَّن متأثر بثقافة يكون قولك ورأيك في القضية مصبوغ بالثقافة التي تثقفتها من أشياء أخرى.

لكن لاحِظ في المقدمة عندما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيهِ شَيءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيفَ يَشَاءُ﴾(آل عمران:٥، ٦) التصوير الدقيق المحكم داخل الأرحام بالنسبة للإنسان ظلام ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ﴾(الزمر:٦) أليس هذا يعني عُمْقاً هناك؟ تصوير دقيق لهذا الإنسان الذي يُعتبَر من أرقى المخلوقات في تكوينه في الظلام الدامس ﴿ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ﴾ ظلمة الرحم وظلمة البطن (الحشا) وظلمة الجسم، فالذي صورنا في الأرحام في ذلك الظلام يمكن أن يكون في كتابه في أعماقه هناك ما هو هدى راقٍ جداً، هناك فيما يبدو عمق، الإمام علي عليه السلام قال: (القرآنُ بَحْرٌ لا يُدْرَكُ قَعْرهُ) البحر أليس من تحت ظلمات، هناك ظلام؟ البحر يكون هناك مسافة مُعيَّنة فيه معرَّضة للشمس ومن أسفل هناك ظلمات، فالقرآن الكريم نفسه، لأنه هناك مقولة وهي للأسف مقولة تعكس نوعاً من الجهل لكن يبدو جهلاً يدفع بالإنسان إلى حالة غرور فاختلفوا حول موضوع: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾(آل عمران:٧) أي: المتشابه، والإمام علي يقول: وما يعلم تأويله إلاّ الله، الإمام القاسم بن إبراهيم، ويبدو كذلك الإمام الهادي: فعلاً هناك متشابه ما يعلم تأويله إلاّ الله.

الإمام القاسم بن إبراهيم يقول: بأنه فعلاً مما اختص الله بعلمه لكن قد يُطْلِع عليه من يشاء من عباده، ممن اصطفاهم من عباده. آخرون منا من المتأخرين بعدما دخلت ثقافة الآخرين لدينا قالوا كيف؟! أي: لا يمكن إلاّ أن يكون الإنسان بالشكل الذي يعرف كل القرآن هكذا: (لأننا خوطبنا به كيف نخاطَب) أي: وبهذه النظرة الفردية، أنا مخاطَب به، وأنت مخاطَب، وهذا مخاطَب، كل واحد مخاطَب به وكأنه خطاب فردي فإذا كنت مخاطَباً به فمعناه ماذا؟ لا بُد أن تكون أنت فاهماً لكل ما فيه تماماً (ولا يمكن أن تخاطَب بما لا تفهمه)!

هذه قضية غير صحيحة؛ لأنها مبنية على رؤية مُعيَّنة قاصرة لموضوع التشريع لموضوع الهدى بكله، هل هو خطاب فردي خطاب لك وحدك، خطاب لهذا وحده، خطاب لهذا؟ ما دام كل واحد هو مخاطباً إذاً سيفهمه هو ولا بُد أن يفهمه! هذه سادت لدينا - لا أدري بالنسبة لطوائف أخرى - فأصبحت الآية يقرؤونها: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾(آل عمران:٧) أضافوا والراسخون في العلم ويكون الوقوف على ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ وتبدأ الآية استئناف ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِن...﴾ أي: حال قولهم ﴿آمَنَّا﴾...إلخ.

لم يوضحوا لنا المتشابه ما هو إلاّ بطريقة غير مقنعة، غير منسجمة مع كلمة تشابه. الذي نعرف بالنسبة للغة العربية، وداخل القرآن الكريم أن كلمة (تشابه) تعني: التماثل، فإذا حصل اشتباه هناك فمعناه أن التشابه بين الشيئين، وعلى أساس أنه مطلوب واحد منهم أوجد لدي لبساً سمي اشتباهاً، اشتباه سمي اللبس الناشئ عن التماثل بحيث لم نعرف بالتحديد أين المطلوب منهم مثلما قال بنو إسرائيل، ألم يقولوا: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَينَا﴾(البقرة:٧٠)؟ هم جعلوا الخطاب وكأنه يريد بقرة مُعيَّنة، لكن هذه البقرة المُعيَّنة يوجد بقر متشابهات لا

ندري أين هي منهن بالذات فحصل لنا اشتباه بسبب تشابه، أي: تماثل. التماثل عادة لا يأتي إلاّ بين شيئين فأكثر، هل يوجد اشتباه في الشيء الواحد وحده، تماثل في الشيء الواحد وحده؟! لا يوجد، التشابه عادة إنما يأتي بين شيئين فأكثر.

هنا قال: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾(آل عمران:٧) أخر، أي: وآيات أخر متشابهات، من خلال كلمة ﴿مُتَشَابِهَاتٌ﴾ أي: متماثلات في شيء، وهذا التماثل له تأويل، له واقع وحقيقة يؤول إليها يختص الله بعلمها. الذين في قلوبهم زيغ قد يحاولون من خلال هذا التشابه أن يستخرجوا منه ما يُعتبَر مثلاً شُبَهاً مُعيَّنة؛ لفتنة الناس عن دينهم، طرح شُبَه مُعيَّنة يفتنون الناس عن دينهم؛ ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ تطلُّب لمعرفة مآله، حقيقته، هو قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ أي: الحقيقة التي يؤول إليها، الذي يوحي به هذا التشابه لا يعلمه ﴿إِلاَّ اللَّهُ﴾(آل عمران:٧).

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾(آل عمران:٧) أولو العلم الثابتون أقدامهم في العلم، الذين لديهم حكمة مع العلم، ولديهم فهم لأنفسهم، وفهم لهدى الله، ومعرفة بالله سبحانه وتعالى: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾(آل عمران:٧) مسلِّمين بالمسألة، لم نعرف ما وراء هذا التشابه، ونحن مؤمنون بأنه كله من عند الله، هذه الآية وهذه الآية التي تبدو متشابهة كلها من عند الله.

على التفسير الآخر جعلوا ﴿كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا﴾(آل عمران:٧) أي: ﴿كُلٌّ﴾ من الْمُحْكَم والمتشابه، الْمُحْكَم لا يوجد لبس حوله، لا يوجد اختلاف حول موضوع محكم، ولا بالنسبة للآخرين الذين في قلوبهم زيغ لا يبحثون حول المحكم هم هناك حول ماذا؟ الآيات المتشابهة، فالراسخون في العلم أثنى عليهم بهذه: أنهم مقرُّون بأنه من عند الله: ﴿كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ وأنهم في نفس الوقت يعتبرون تلك الحالة: المحاولة للآخرين تنبئ عن زيغ في قلوبهم ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيغٌ﴾ هم في حالة خطيرة على أصحابها، هنا يدعون الله: ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيتَنَا﴾ فنصبح كأولئك الذين قد زاغت قلوبهم وأصبحوا يتطلبون ما يفتنون به الناس عن دينهم وما يتمحَّلون به من أجل محاولة أن يعرفوا تأويله مع أن تأويله لا يعرفه إلاّ أنت ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾(آل عمران:٨) ولديهم خوف من الله ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَومٍ لاَ رَيبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾(آل عمران:٩) هؤلاء هم الراسخون في العلم، يجب أن نفهمها بهذه الطريقة، وفي كلام للإمام علي بنفس هذه الطريقة: أن الراسخين في العلم هم هؤلاء. ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾(آل عمران:٧) فالتأويل هنا زيادة على المعنى اللغوي للكلمة قد تكون هذه الكلمة، هذه الآية تعرف معناها بالنسبة لها هي باعتبار مفرداتها، والآية الأخرى كذلك تعرف معناها باعتبار مفرداتها، لكن التشابه القائم هنا الذي قد يكون وراءه ما يشير إليه قضية أخرى، التشابه القائم بين آيتين.

أحياناً تأتي كلمة (كتاب) وتعني بالذات أو بشكل رئيسي الأشياء المكتوبة، أي: التشريع مثلما قال: ﴿كُتِبَ عَلَيكُمُ الصِّيَامُ﴾(البقرة:١٨٣) ﴿كُتِبَ عَلَيكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوتُ إِن تَرَكَ خَيرًا الْوَصِيَّةُ﴾(البقرة:١٨٠) المكتوب، أي: المحتوم، المفروض، التشريعات المحتومة، المواقف المحتومة، وأشياء من هذه، أحياناً تكون كلمة (كتاب) داخل القرآن تعني هذه بشكل رئيسي.

إذاً فليست القضية على ما تُقدَّم: بأن يأتوا إلى آية مُعيَّنة ويسمُّونها متشابهة، آية واحدة قالوا: هي مِن المتشابهات باعتبار أن معناها في اللغة في مفردة من مفرداتها يحتمل كم أوجه وأن هناك واحداً من معانيها وجه باطل لا يصح أن تحمل عليه أن نقول: إنه هو المراد وتحمل عليه الآية ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيغٌ﴾(آل عمران:٧) فيبحثون عن هذا المعنى ويجعلونه مثل الآيات التي فيها مثلاً ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾(المائدة:٦٤) ألم يجعلوا هذه الآية من المتشابهات؟ والتشابه فيها أن فيها معاني تحمل كلمة (يد) على اليد الجارحة، وعلى القدرة، وعلى النعمة، ولا يمكن أن يكون المراد بها اليد الجارحة، والذين في قلوبهم زيغ يصلون إلى هذا المعنى ويقولون إنه هو المراد!

هذا الموضوع ليس هو المقصود بالتشابه، ليست هذه هي الآيات المتشابهة، أي: ليس التشابه – فيما أعتقد – آية واحدة يقال لها متشابهة؛ لأنه هنا يذكر بالنسبة للتأويل الذي يوحي به ويشير إليه التشابه القائم بين آيتين أو أكثر أنه شيء حق أنه حق وليس باطلاً، هذا المعنى عندما يقول: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾(آل عمران:٧) ليس معناه أن هناك داخل آية مُعيَّنة معنىً باطلاً وهؤلاء يحاولون أن يطلعوه ويقولوا: (الآية تعني: كذا، وأنه معنى موجود داخل الآية)! هذا لا يصح.

في أيِّ آية من هذه الآيات مثل: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾(الرحمن:٢٧) ومثل ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾(القمر:١٤) هي وفق الاستعمال العربي، وأنت تعرف الاستعمال العربي أيضاً باعتباره كلاماً يأتي من عند الله؛ لأن أسلوب الخطاب في لغة العرب معروف عند العرب، الخطاب من عند الْمَلِك، الخطاب من عند والي، الخطاب من عند شخص له مكانة يكون له أسلوب، عندما يكون القرآن عربياً هو عربي أن تعرف أنه وفق أساليب العرب، وتلحظ في نفس الوقت أنه وفق أساليب العرب كخطاب من عند الله من عند الْمَلِك، فلا يمكن أن يكون في هذه الآية، في موقعها، في سياقها ذلك المعنى الذي يحاول الآخرون أن يقولوا: إنه معنى مما تدل عليه الآية.

مثلاً ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾(المائدة:٦٤) يقولون له أيدي بمعنى (أعضاء) ألم يقولوا هكذا؟ هذا المعنى ليس موجوداً من أصله داخل الكلمة، وليس بالشكل الذي يأتي الذين في قلوبهم زيغ يبحثون له، هم جاؤوا به من هناك من خارج، إنما فقط يحاولون أن يعطفوا الآية عليه، أمَّا هنا فيوجد شيء قائم داخل من خلال التشابه يوحي التشابه بشيء يوحي التماثل هذا بشيء، بمآل، أي: إشارة إلى قضية هي في الخارج، أي: عندما يقول: تأويله، أي: مآله، ما يؤول إليه، الحقيقة التي يؤول إليها، الواقع الذي يؤول إليه، أي: يصير إليه، أي: يرجع إليه، فهو موجود من خلال التشابه له هناك حقيقة في الخارج حقيقة ماذا؟ يؤول إليها لا يعلمها إلاّ الله وهي موجودة، أليست موجودة في الداخل؟ هنا نفس التشابه.

تجدها كلها عندما يقدمون لنا الآيات التي يسمونها آيات متشابهة ليست آيات متشابهة على الإطلاق؛ لأن المعنى الذي يقوله الآخرون يستخرجون تجسيماً لله، أو رؤية لله، وأشياء من هذه، هي ليست من داخلها على الإطلاق، ليست موجودة في الداخل، في الأخير يلحظ أن التشابه هنا معناه: اشتباه بسبب أن هذه المفردة تعني كذا، وتعني كذا، وتعني كذا، عدة معاني متعددة واحد منها باطل أن يكون مراداً هنا.

إذاً لا يمكن أن تكون هذه المفردة وهي هنا تدل على هذا المعنى الباطل على الإطلاق؛ لأن الله يقول في القرآن الكريم ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَينِ يَدَيهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِه﴾(فصلت:٤٢) فلا يمكن أن تحمل آية من آياته معنىً باطلاً فيحاول الذين في قلوبهم زيغ أن يستخرجوا ذلك المعنى باعتبار أن الآية تحتمله، ليس بهذا الشكل على الإطلاق.

يسردون لنا هذه الآيات على أساس أنها آيات متشابهة، آيات متشابهة ﴿وُجُوهٌ يَومَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(القيامة:٢٢، ٢٣) قالوا: آية متشابهة! وأولئك قالوا: لا، آية محكمة، والآية الأخرى ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَار﴾(الأنعام:١٠٣) قالوا: آية محكمة، قال أولئك: لا، هي التي هي متشابهة، وتلك محكمة! اختلفوا فيما هو محكم ومتشابه، واختلفوا في معنى المتشابه، وقُدِّم بهذا الشكل الذي هو بعيد عمَّا تعنيه كلمة (تشابُه) لأن كلمة ﴿وَأُخَرُ﴾ أي: آيات أخر ﴿مُتَشَابِهَاتٌ﴾ هذه الكلمة أليست تعني أنه يوجد تماثل قائم فيما بينها؟ هذا التماثل من ورائه شيء لا يعلمه إلاّ الله سبحانه وتعالى؟

المحكم فيما يتعلق مثلاً بأسس، قواعد رئيسية أساسية، مثلاً نلاحِظ هناك في مسيرة التشريع باعتبار القرآن الكريم يواكب الحياة كلها إلى آخر أيام الدنيا، في مجال التشريع يكون هناك أسس، لاحِظ حتى عند الناس في الدنيا هنا تكون النصوص الدستورية مختلفة عن النصوص التقنينية، في الدستور يعتبرون النصوص الدستورية أسساً يجب أن يقوم عليها التقنين، ويكون الدستور قابلاً للاستمرار أكثر من التقنين، يكون التقنين - مثلاً - على حسب رؤية المقننين، يكون التقنين بالشكل الذي يجب أن يكون منسجماً مع الدستور، فإذا قام تقنين في مرحلة مُعيَّنة مراعاة لنص دستوري مُعيَّن في مرحلة أخرى قد يأتي تغيير؛ ولهذا ألسنا نجدهم يُغيِّرون على أساس أنها قد تكون نصوصاً أخرى أيضاً من نصوص الدستور؟ في الدستور يقولون: (باب كذا، مادة كذا، رقم كذا، بنص كذا). إذاً هذا قابل لماذا؟ لأن نعطي نوعاً من التغيير في التقنين وما زال وفقاً للدستور.

ففي مجال التشريع يكون هناك آيات على هذا النحو، تلك الآية التي قال الله فيها: ﴿كُتِبَ عَلَيكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوتُ إِن تَرَكَ خَيرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَينِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾(البقرة:١٨٠) أليست هذه آية تعطي أساساً ثابتاً وقاعدة عامة أنه لا بُد أن يكون هناك في توزيع المال أن ينال الوالدين والأقربين هذه قضية أساسية قام على أساسها تفريع وتشريع مُعيَّن هناك: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَولاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَينِ﴾(النساء:١١) لا نقول هذه الآية منسوخة، بل هذه الآية تُعتبَر قاعدة تشريعية، قد تأتي وضعية مُعيَّنة لشعوب أخرى يصل إليها الدِّين تجد أنه عندما بُعث رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) مرت مرحلة لم يتناول

موضوع توزيع المال، ألم تمر فترة؟ ثم تأتي هذه الآية بعد لتعطي قاعدة بضرورة توزيع المال ولم تتناول أنصبة مُعيَّنة، إذاً هذا شيء، نقلة أخرى حدد فيها المال، اعتبرْ تلك النقلة ماذا؟ مبنية على هذا الأصل وتفريع على هذا الأصل الذي هو أن يكون هناك للوالدين والأقربين بالمعروف، فهذه الآية لا يقال لها منسوخة بل محكمة.

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيكَ الْكِتَابَ مِنهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾(آل عمران:٧) قالها في مجال التشريع؛ لأن نظرة القرآن فيما يتعلق بالتشريع واسعة جداً، وتختلف عن الأسس التي يقوم عليها التفريع وفق قواعد (أصول الفقه) فرق كبير جداً، فالقرآن يستوعب كل المراحل بدون أن يكون المعنى أنه هو يتأقلم، تأتي عملية النقلة بالمجتمع إلى أن يصل إلى الوضعية المطلوبة، أليست هذه حصلت في المجتمع العربي عندما بُعث رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم)؟ فالآيات المحكمات باتفاق أنهم يعتبرونها آيات تُعتبَر متى ما حصل لبس يُرجَع إليها، وأنها تنفي ما يراد أن تحمل عليه الذي يسمونها آية متشابهة بمعنى باطل فتنفيه، أي: الآخرون قالوا: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(القيامة:٢٣) أي: أنها تراه، قالوا: تلك الآية المحكمة: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾(الأنعام:١٠٣) هي تنفي هذا المعنى الذي قلتم، هذا شيء آخر؛ لأن هذه الآية بنفسها لا يمكن أن تُحمل في هذا المقام على الرؤية على الإطلاق، نفس التعبير فيها وسياقها لا يمكن أن يكون بمعنى الرؤية.

سياق الآية عندما يقول: ﴿وُجُوهٌ يَومَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾(القيامة:٢٢) من النضارة ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَومَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾(القيامة:٢٣-٢٥) قابَل حالتين بحالتين؛ لأن كلمة ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ تُبيِّن لك أن ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ تَأمُل وترجو أنها إلى خير وإلى رحمة، بينما الوجوه الأخرى باسرة؛ لهذا لم يقل: عيون، لا يوجد شيء في اللغة العربية وجوه ناظرة! يقولون: عيون ناظرة إذا أرادوا الرؤية، لا يقولون: وجوه، بل عيون، لكن هذه الوجوه باعتبار الوجه هو شاشة يتبين من خلالها عبوسك، وبسرك، ونضارتك، وخوفك، ورجاك، يتبين في وجه الإنسان، فالوجوه المؤمنة تجد فيها حالة متفتحة من النضارة؛ لأنها تَأمُل، ترى المبشرات فتجعلها تأمُل بماذا؟ بما يأتي من جهة الله من رحمة فتدخل الجنة. ووجوه أخرى ﴿بَاسِرَةٌ﴾ لماذا؟ يقابل ﴿نَاضِرَةٌ﴾ يقابل تلك الوجوه التي هي ترجو، يقابلها ماذا؟ ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ منتظرين خائفين من فاقرة، من طامة تكسر فقار الظهر – كما يقولون – أي: من مصيبة كبيرة تقع عليهم متى يقاد إلى جهنم ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ إذاً فهذه الآية من أصلها لا يمكن أن يكون فيها مأخذ لمسألة الرؤية على الإطلاق.

فيما يتعلق بالآيات المحكمة قد تكون قضية يمكن أن تُرَد إلى أكثر من آية، قضية مُعيَّنة ينظر من أجلها إلى أكثر من آية فتعطي رؤية في كيف يكون التعامل فيها، عندما يقولون: (لا بُد أن تعرف مُحْكَماً ومتشابهاً، لا بُد أن يقرأ الواحد ليعرف!) الذين قرؤوا لم يعرفوا محكماً ومتشابهاً حقيقة، لم يقدِّموا لنا موضوع (محكم ومتشابه) بالشكل الذي تعرف بأن القضية عُرِفت وتجاوزوا من عرفوا من السابقين، الإمام علي (عليه السلام) قال: وما يعلم تأويله إلاّ الله: المتشابه، الإمام القاسم (عليه السلام) قال هكذا، وأظن الإمام زيد والإمام الهادي (عليهما السلام). وهؤلاء يقولون: (أبداً، نستطيع، لا بُد أن نعرف كيف، هذا خطاب لي وخطاب لك ولا بُد أن يعرف كل واحد بنفسه!) ماذا نسميه؟ هذا غرور.

لهذا نقول أكثر من مرة: إلى الآن ليس لديَّ أنا شخصياً مثال واضح أقدِّمه عن آيات متشابهة أقول: الآيات المتشابهة هي هذه الآية وهذه الآية وهذه الآية، لكن أحياناً من خلال من في قلوبهم زيغ يحاول أن يعمل كيف يُقدِّم شُبَهاً مُعيَّنة وتشكيكاً مُعيَّناً، ربما هم قد يعلِّموننا ما هي التي تبدو آيات متشابهة من خلال: وهو يبحث كيف يحاول أن يستخرج شيئاً يكون فيه رِدَّة للناس عن دينهم، صد لهم عن دينهم، والذين في قلوبهم زيغ قد يكونون من داخل المسلمين وليس فقط من خارج. ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾(آل عمران:٧).

هنا لم تعد هذه تقدَّم على أنها ما زالت من بقية كلام الراسخين في العلم، عندما تقرأ في بعض الكتب – فعلاً – لم تعد تقدَّم ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الوَهَّابُ﴾(آل عمران:٨) أنهم أناس مُقِرُّون أنهم لا يعلمون تأويله ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ﴾(آل عمران:٧) وهم يخافون مما رأوه عند آخرين ممن في قلوبهم زيغ يحاولون أن يستخرجوا تشبيهات مُعيَّنة أو شكوكاً مُعيَّنة ابتغاء الفتنة. هم يدعون الله أن يبعدهم عن هذه الحالة ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيتَنَا﴾(آل عمران:٨) خائفين من الله؛ لأن هذه ليست قضية سهلة، معنى هذا أن الناس يلعبون بآيات الله ويتخذونها هزؤاً، ويؤقلمونها على ما يريدون هم، يستخرجون منها تشبيهاً للناس وتشكيكاً للناس، وصداً لهم عن الحق، هذا معنى الفتنة يفتنونهم عن دينهم.

وهم يخافون الله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَومٍ لاَ رَيبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾(آل عمران:٩) ليست القضية

أنه لا بُد أن كل واحد يكون عارفاً للمحكم والمتشابه، إذا عرفنا سُنة الله في الهداية كيف هي، وليس على أساس (أن كل واحد لا بُد أن يشتغل هو ويبحث، لا بُد أن يعرف: خاصاً وعاماً، وناسخاً ومنسوخاً، ومُحْكَماً ومتشابهاً... إلخ) ولهذا كم تجد من أقوال فيما يتعلق بالخصوص والعموم، وكيف التعامل فيه، والناسخ والمنسوخ، كم فيه من أقوال! وكم يوجد من اختلاف فيه، ثم كذلك المحكم والمتشابه كم يوجد من أقوال مختلفين فيها إلى الآن، ويقولون لك: (لا بُد أن تعرف)! مع أنهم ما قد قرروا شيئاً واضحاً يكون منطقياً وصحيحاً في هذا كله! كيف يمكن الشيء الذي ما قد ثبت أن يكون آلية صحيحة؟! هو في نفسه مختلفون فيه هو داخل الفئة الواحدة وليس فقط إنما هو اختلاف بين طوائف، تجد أحياناً في موضوع (محكم ومتشابه) أكثر من تفسير داخلنا نحن، داخل الزيدية.

فعندما تكون القضية كما قال الله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيكَ الْكِتَابَ بِالْحَقّ﴾(آل عمران:٣) ثم قال من بعد: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيهِ شَيءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾(آل عمران:٥) ثم ترى في الأخير الموضوع وهو مجلد واحد، كتاب واحد، الهدى الذي فيه، التشريعات التي فيه، يسع الحياة بكلها! لو تأتي إلى مجرد معاني مفرداته سينتهي عليك في (ملزمة) واحدة، معاني مفرداته باعتبار اللغة أليست هناك ستخرج كتيباً صغيراً؟ أو شخص يفسره قد يخرج بكم ما يريد من مجلدات لكنه واسع جداً جداً.

هذه من الأشياء التي فيه عندما يكون هناك آيات محكمات في مجال التشريع، في مجالات كثيرة جداً لا تزال تعطي، تُعتبَر قواعد وأسساً ينطلق منها ويقوم عليها أيُّ رؤية، أيُّ موقف، أيُّ حكم مُعيَّن في قضية، تكون أشياء لها علاقة بماذا؟ بمواردها، لها علاقة بوضعية، لها علاقة باعتبارات متعددة، ليست نظرية بحتة بل مبنية على ماذا؟ على شيء في واقع الحياة، اعتبارات متعددة، وضعيات متعددة؛ لهذا كان القرآن واسعاً جداً يشرِّع للحياة كلها إلى نهاية الحياة وهو مجلد واحد.

الإمام القاسم قال في هذا: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾(آل عمران:٧) وإن الله قد يُطلِع من يشاء من عباده على ما يشاء من معانيه، أي: المتشابه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَولاَدُهُم مِنَ اللَّهِ شَيئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾(آل عمران:١٠) كلما يتحدث عن الهدى يتحدث عن أشياء أخرى قد تمثل موانع مثلاً أو تُبيَّن لأصحابها أنها بالشكل الذي يصرفهم عن هدى الله. يتناول هذا في مقام التهديد: هذه لن تغني عنكم من الله إذا لم تستجيبوا لهدى الله، وواقفين على ما أنتم عليه، تائهين فيما أنتم عليه، مشغولين بأموالكم وأولادكم ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾ لن تدفع عنكم من الله العقوبة التي كانت بسبب أنكم أعرضتم عن الهدى وانصرفتم عنه ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَولاَدُهُم مِنَ اللَّهِ شَيئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾(آل عمران:١٠).

هذه المسألة هامة فيما يتعلق بالجانب العملي للناس؛ لأن الكثير من إطلاقات الآيات الكريمة لا تكون معناها دائماً الآخرة فقط، أنه كثير من أموالهم، كثير من أولادهم، كثير من إمكانياتهم الكبيرة لن تغني عنهم، لن تمثل وقاية متى ما أراد الله أن يُضرَبوا على أيدي أوليائه، لن تمثل منعة بالنسبة لهم متى ما أراد الله أن يُضرَبوا ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾ أي: لن تدفع عنكم الشيء الذي أراد الله أن ينالكم بسبب انصرافكم عن هديه، بسبب طغيانكم بسبب تجبركم، وحتى هنا في الدنيا، حتى هنا في الدنيا قبل الآخرة؛ ولهذا قال بعد: ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾(آل عمران:١٠) لن تدفع عنهم في الدنيا؛ لأن الكثير منا يرى - مثلاً - طرفاً آخر، يراه: لديهم جيش كثير، ولديهم أموال كثيرة، ولديهم إمكانيات كبيرة، فيتصور ما الذي يمكن أن نعمل؟! لكن أنت عندما تسير على هدى الله، وعلى دين الله، ألم نقل بالأمس: إنه يجب أن نفهم دين الله؟ أن مِن مهمة أولياء الله في دينه أن يتم على أيديهم تطهير أرضه.

وهذه القضية أساسية فآخرين تجد مثلاً عندما تكون أنت تسير على هدى الله وقد أراد الله أن يكون الناس على هذا النحو: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيهِمْ﴾(التوبة:١٤) أليس هذا شيئاً جاء من جهة الله، من الله؟ إذاً فلن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم، لن تغني عنهم إمكانياتهم الكبيرة، ولا جيوشهم الكثيرة! أليست الجيوش تتألف من أولادهم؟ سواءً على مستوى الفرد أو على مستوى دولة أو مجتمع، الكافرون سواءً كان على مستوى فرد وعنده أموال وعنده أولاد وعنده... بشكل لا يظهر وكأنه محتاج إلى شيء أو كانوا مجتمعاً؛ لأنه عادة الناس الذين يتألف منهم جيش دولة مُعيَّنة، أليسوا من أبناء تلك الدولة، على حسب قوانينهم، ولو مُنِح - ما يسمونها - جنسية؟

وهذه القضية كلها تجدها في القرآن الكريم بشكل كبير: أن هدى الله هو بالشكل الذي لا يمكن أن يكون هناك عوائق أمامه في واقع الحياة أبداً، والمهام المنوطة بأوليائه هي أيضاً تكون بهذا الشكل؛ ولهذا قلنا في حديث سابق إنه عندما يفهم بعض الناس موضوع (الإمام علي) عندما يقولون: (إنه تولى فقام فلان وفلان وفلانة واجتمعوا أهل كذا وعارضوه وقاتلوه، ثم قام وقاتلوه، ثم قام وقاتلوه) أن هذا أحياناً قد يكون من دور الإمام علي المنوط به: أن تُضرَب على يديه هذه الفئات التي كفرت بهدى الله، أعرضت عنه وعارضته، من أدواره؛ ولهذا قال: إن رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) أمره بقتال: (الناكثين والقاسطين والمارقين) أنه سيقاتل على تأويل القرآن كما قاتل رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) على تنزيله.

هنا قال: ﴿قَاتِلُوهُمْ﴾ هذا دور من أدواركم بالنسبة للمفسدين في الأرض بالنسبة للكافرين بهدى الله ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيدِيكُمْ﴾(التوبة:١٤) أليس هذا الدور يعني أنه منوط بكم؟ الدور المنوط بكم سيكون الطرف الآخر بهذا الشكل الذي ماذا؟ لا تغني عنه أمواله ولا أولاده، أليس هذا يعني أن الله يفتح المجال؟ لا يمكن أن يقول: ﴿قَاتِلُوهُمْ﴾ ويترك الآخرين عبارة عن كُتَل من الصلب إلاّ ويكونون هم بالنسبة لواقعهم ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَولاَدُهُمْ﴾(آل عمران:١٠) لن تدفع عنهم ما هو من جهة الله، وما هو من الله يصدق على ما هو على أيدي جنوده سواءً كانوا جنوداً من أوليائه أو جنوداً من ملائكته أو جنوداً مِن... ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(الفتح:٧) ولهذا جاء بعدها: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾(آل عمران:١٢).

أليست قضية ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ تعني لن تنفعكم أموالكم ولا أولادكم، لن تغني عنكم أموالكم ولا أولادكم؟ أليس هنا ستغلَبون؟ في مواجهة مَن؟ أليست في مواجهة جنوده من المؤمنين مع رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) في (بدر) وفي غيرها؟ ألم يُغلَبوا؟

إذاً هذه حالة ثابتة داخل القرآن الكريم تنسِف كثيراً من الأشياء التي تأتي داخل نفس كل واحد ينظر للطرف الآخر وكأنه (مَن الذي يستطيع؟!) لا، اعرفْ هذه سُنة إلهية، فقط اعملْ أنت في سبيله، سِرْ أنت على هداه لتصبح أنت جندياً من جنوده يضرِب بك أعداءه، وعندما يضرِب بك أعداءه سيكون أعداؤه بهذا الشكل: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَولاَدُهُمْ﴾(آل عمران:١٠) أو تقصر أنت يضربك بأعدائه ولا تغني عنكَ لا أموالك ولا أولادك. ألسنا وجدنا آخرين في البلاد العربية حصل لهم هذا؟ ممن كانوا طواغيت ومتجبرين ما أغنت عنه لا جيوشه ولا أسلحته ولا أمواله!

فالمسألة شِبه متقاربة أو متماثلة في الخطاب، أولياء الله يتحركون ويتم على أيديهم ضرب أعدائه، لكن أولياءه بالمعنى المطلوب، من يسيرون على كتابه، وليست فقط عناوين مُعيَّنة (سبيل الله!) وأشياء من هذه ليست صدقاً، أو مَن هم محسوبون على دينه وهم معنيون بأن يتحركوا فيرفضوا سيُضرَبون هم ولن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم، مثلما حكى في الآية الأخرى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَونَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَونَهَا أَحَبَّ إِلَيكُم مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَومَ الْفَاسِقِينَ﴾(التوبة:٢٤) لا تغني عنكم هذه كلها، تُضرَبون.

فالمسألة بالنسبة للناس إمَّا أن يحاولوا أن يكونوا هم أولياء لله؛ فيتم على أيديهم ضَرْبُ أعدائه، أو يقعدوا فيتم ضربهم على يد أعدائه، أليس الله قال هناك في بني إسرائيل: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيهِمُ الذِّلَّةُ أَينَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾(آل عمران:١١٢) في نفس السياق الذي يقول للناس: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾(آل عمران:١٠٣)؟ اعتصموا بحبل الله أنتم، ما لم فقد يعطي حبلاً لأولئك فيضربونكم أنتم، هي عبارة عن سبب ﴿اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ سبب بينكم وبينه؛ ليؤيدكم، لينصركم، ليرفعكم عن الوضعية السيئة التي أنتم فيها لتصبحوا جنوداً له تضربون آخرين ما لم فقد يمكّن الآخرين يعطيهم حبلاً من عنده ومن عند الناس فيضربونكم.

لا توجد حالة فراغ، لا توجد منطقة فراغ في دين الله على الإطلاق، إنما فقط تسير على هديه فتكون أنت من جنوده ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيهِمْ﴾(التوبة:١٤) ولهذا كانت معروفة عند المسلمين الأوائل ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَينِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِندِهِ أَو بِأَيدِينَا﴾(التوبة:٥٢) كلمة ﴿أَو بِأَيدِينَا﴾ هي تعكس ثقافة، معرفة قدِّمت لديهم من عند رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) لأنه هكذا هي سُنة، ومن دوركم أنتم كأولياء لله أن يُضرَب أعداؤه على أيديكم، هذه قضية ثابتة، أي: مسألة تثقيفية، إمَّا أن يكون الناس بهذا الشكل وإلاّ ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَومَ الْفَاسِقِينَ﴾ هل توجد حالة وسط؟ لا توجد حالة وسط، منطقة فراغ، يقول: (لا مع الله ولا مع أعدائه، ولا جندي من جنود الله ولا جندي من جنود أعدائه) لا توجد حالة هكذا.

ضرب مثلاً لمن كان لديهم أموال وأولاد ومُلْك وكثير من مظاهر الحياة: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَونَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ * قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾(آل عمران:١١، ١٢) سيأتي مثلما قال سابقاً: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَولاَدُهُم مِنَ اللَّهِ﴾(آل عمران:١٠) يأتي شيء من جهة الله تغلبون ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تدفع عنكم لا أموالكم ولا أولادكم ولا تنفع بشيء، لا تعمل شيئاً، لا تشكّل وقاية بالنسبة لكم.

إذاً أليست هذه الآية تعطي أملاً بالنسبة للمؤمنين بالنسبة للناس الذين يسيرون على هدي الله؟ فعلاً تعطي أملاً أن يفهموا بأنه مهما كان لدى الآخرين من أموال وأولاد وعتاد وجيش وأشياء من هذه أن تعرف أنهم هم في حالة تجعل لله موقفاً منهم، فلتكن من جنوده ليضربهم، عندما قال هنا: ﴿أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِندِهِ أَو بِأَيدِينَا فَتَرَبَّصُوا﴾(التوبة:٥٢) هذه الثقافة التي حكى الله عمَّن كانت تترسخ في ذهنيتهم ﴿بِأَيدِينَا﴾ لم تعد هي موجودة! نسِفت في أوساطنا، نسِفت تماماً، ونسِف بأنه يبتنى عليها أنكَ إذا كنتَ جندياً من جنود الله، أمة من الأمم أصبحت جنوداً لله ليضرب بهم أعداءه بأن الأعداء لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم!

قد يقول هؤلاء: (لاحِظ هؤلاء الذين يقولون: الموت لأمريكا، الموت لإسرائيل، كيف ذلك؟ نحن لا نستطيع، كل الناس يخافونها، كل الدول تخاف منها!) ناسين لهذه السُّنة الإلهية التي يذكرها في هذه الآيات. يأتي بمثل من الأمثلة في هذا الموضوع: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾(آل عمران:١٢) خسارتان كبيرتان: تُغلَبون في الدنيا، وتساقون في الآخرة إلى جهنم ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾(آل عمران:١٣) تدل على أنكم ستُغلَبون، تدل على أنكم لن تغني عنكم أموالكم ولا أولادكم، تدلكم على أن الله غالب على أمره، تدل على أنكم لا تعجزون الله ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَينِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ أي: والفئة الأخرى كافرة ﴿يَرَونَهُم مِثْلَيهِمْ رَأْيَ الْعَينِ﴾(آل عمران:١٣) هذه واحدة من مظاهر ماذا؟ أن يترك في نفس الفئة الأخرى حالة من الهزيمة، أن يكونوا يرون الفئة المؤمنة عددهم أمامهم مثل عددهم مرتين؛ فيحصل لديهم خوف أن هؤلاء كثيرون وهم في الواقع ليسوا إلاّ مثل نصف ما يشاهدونهم؛ لأن الله على كل شيء قدير.

﴿يَرَونَهُم مِثْلَيهِمْ رَأْيَ الْعَينِ﴾ أو ﴿تَرَونَهُم مِثْلَيهِمْ رَأْيَ الْعَينِ﴾ مثلهم مرتين في رأي العين ليس في الواقع، هم - مثلاً - ألف يرونهم وكأنهم ألفان، أليس هذا سيُوجِد لديهم هزيمة نفسية؟ واحدة مما لها تأثير كبير في نفوسهم، إضافة إلى الرعب من جهة الله، إضافة إلى الملائكة، أشياء كثيرة.

إذاً أليست هذه آية على أنهم سيُغلَبون، وأنهم لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً؟ وإن كانوا يرون المؤمنين في ذهنيتهم ويسمعون عنهم لا يزالون قليلاً يرونهم كثيراً وكأنهم مثلهم مرتين! هذه حصلت.

في مقام آخر يُبيِّن في (سورة الأنفال) في عملية أن يحصل التحام؛ لأن الله قد أراد أن يحصل هذا، في (بدر) المشركون يرون المسلمين قليلاً، والمسلمون يرون المشركين قليلاً! وكل طرف أصبح يرى أن هؤلاء ليسوا إلاّ قليلاً! تواجهوا وكأنهم أثناء المعركة بعد الالتحام صاروا يرونهم كثيراً مثلهم مرتين ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَو أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ﴾(الأنفال:٤٣) أليست هذه واحدة من مظاهر التأييد الإلهي: أن يبدو الأعداء أمامك قليلاً، وأن تبدو أمامهم كثيراً؟ ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً﴾(الأنفال:٤٤) ليتواجهوا؛ لأنه قد أراد أن يُضرَب أولئك على يد أوليائه، خرجوا وهم كثير وإذا بهم قد صاروا يرونهم قليلاً، أليست هذه واحدة مما تنسِف القيمة لديهم بأن يُرَوا أمام المسلمين كثيراً؟ هنا ألف يُرَون كثيراً، ثم يرون أنفسهم قليلاً، ثم هذا الألف يرونه قليلاً! قد يرونهم وكأنهم ثلاثمائة أمامهم!

إذاً ألم تتبخر عندهم القضية التي يعتبرونها تمثل نقطة قوة لديهم توجد هزيمة نفسية في طرف المسلمين عندما يرونهم كثيراً؟ يريكموهم قليلاً، والمشركون أنفسهم يرون أولئك قليلاً فيلتحمون.

﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ﴾(آل عمران:١٣) لاحِظ موضوع ﴿بِنَصْرِهِ﴾ تحصل ترتيبات كثيرة لها علاقة برفع معنويات الطرف المؤمن ولها علاقة بهزيمة نفسية تلحقها في نفس الطرف الكافر المعادي لله قال ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ﴾ هذا مثل ماذا؟ من أمثلة التأييد الإلهي، التأييد معناه: تقوية، يعطي جانبكم قوة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الأَبْصَارِ﴾(آل عمران:١٣) من كل الأطراف عبرة لمن قدَّم لهم هذا المثل عندما قال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾(آل عمران:١٣) أي: فاعتبروا بهذه إذا كنتم من أولي الأبصار، وعبرة للمؤمنين أنفسهم بألاّ يكترثوا

بمواجهة أعداء الله، إن هذا عبرة أن الله سيجعل كل ما لديهم من الأشياء لا تمثل وقاية منك فيكون ما عندك أشياء ذات أثر كبير في صف أعداء الله، تؤثر تأثيراً كبيراً جداً.

لهذا تجد كل ما يحصل عند الناس من مفاهيم مغلوطة تجعلهم يقعدون، وتجعلهم يكترثون، منسوفة في القرآن تماماً، لا ترى حالة واحدة يمكن أن تعتبرها مبرراً إلاّ وهي منسوفة هنا، سواءً موضوع أنك خائف من مجاعة، خائف على أموالك، خائف على كذا... كلها تناولها القرآن الكريم، كل القائمة الطويلة العريضة التي تطلَع عند الناس فتقعدهم عن العمل في سبيل الله، والجهاد لأعدائه كلها منسوفة هنا تماماً.

يُبيِّن للمؤمنين كيف يكون تأييده، كيف يكون نصره، يعطيهم أملاً بأن الجانب الآخر الذي ترونه كبيراً تتهاوى قوته فيصبح لا تغني عنه قوته هذه شيئاً، لا قوة الأموال، ولا قوة الأولاد.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ * زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾(آل عمران:١٣، ١٤) الناس بشكل عام هنا وهنا مما قد يجعل الإنسان بعيداً عن أن يكون لديه عبرة، أن يكون صاحب بصيرة، يَعتبِر بما يُقدَّم إليه من آيات الله جانب الكافرين وأعداء الله بشكل عام، وجانب المؤمنين، فمتى ما تزينت لديك هذه الأشياء صرفتك عن أن تَعتبِر، أن تستبصر فتعتبر بما ذكره الله من آيات كثيرة تُبيِّن لك كيف يجب أن تكون نظرتك إلى المال، كيف يجب أن تكون ثقتك به، وكيف يجب أن يكون شعورك بالمسؤولية، وكيف تكون نظرتك إلى أعداء الله.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ﴾ تأتي عملية تزيين، أمَّا هي في واقعها فهي طبيعية هي من متاع الحياة الدنيا، لكن لاحِظ أليس بعض الناس يأتي يزين لك يقول لك: (أنت ذا في خير ونعمة، ولديك بيت باهر، ولديك أموال، إنما فقط ستسبب لنفسك المشاكل، وتخسر هذه الأشياء) أليست مسألة تزيين؟ يشدك إلى ما أنت عليه، إلى ما عندك من أشياء.

﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنيَا﴾(آل عمران:١٤) كل هذه التي تبدو بأرقام كبيرة بما فيها ﴿الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ مهما كانت هي تمثل متاعاً لهذه الحياة، هذه الحياة هي قصيرة بالنسبة للحياة الآخرة ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ يجب أن تكون نظرتك مهما كان لديك وإن كان لديك قناطير مقنطرة من الذهب والفضة، القنطار يقولون عنه: ما يملأ جلد ثور، قد يكون أكثر من (طن) من الذهب، يجب أن تعرف أن ما عند الله هو أبقى وأهم وأدوم ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾(آل عمران:١٤) حُسن المرجع.

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيرٍ مِن ذَلِكُمْ﴾(آل عمران:١٥) لاحِظ هذه قضية من القضايا التي تُقْعِد الناس مثلاً قضية: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾(آل عمران:١٤) قد تقعدهم مثلاً حالة افترضها على هذا النحو: قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيرٍ مِن ذَلِكُمْ﴾ من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة، والأنعام، والحرث: الأراضي والمزارع، وأشياء من هذه، يجب أن تلحظ أنه مهما كان لديك من هذا الشيء أن تحرص على ذلك الخير العظيم الذي هو خير مما لديك ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيرٍ مِن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾(آل عمران:١٥) أفضل من النساء، ألم يقل هناك: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾(آل عمران:١٤)؟ ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾(آل عمران:١٥) معنى هذا بأنه يمكن أن يكون عند الإنسان أيُّ شيء لكن يجب عليه أن يفهم بأن كل ما يملكه في هذه الدنيا وإن كانت الدنيا بكلها أن ما عند الله هو خير من هذه الدنيا بكلها، أي: لا يشكّل ما لديك عائقاً، ولا يكون بالشكل الذي يجب أن تتخلى عنه بمعنى (إذاً تدمِّر ذهبك وفضتك وتحرقها) لا، أن تكون عندك هذه النظرة الصحيحة: هو أن ما عند الله هو خير مما في هذه الدنيا بكلها.

أيضاً تلاحِظ بأن مسألة – لأن الله يعلم بالنسبة للإنسان أنه يحب الخير بحكم طبيعته كما قال في آية أخرى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيرِ لَشَدِيدٌ﴾(العاديات:٨) – القعود قد يكون خيراً، لكن معروف عنك كإنسان بأنك تحب الخير، والعادة أن الإنسان يحب الخير الأكثر، والخير الأدوم، أكثر من الخير الذي هو دون ولا يدوم، أليست هذه أيضاً قضية؟ إذاً فهناك ما هو خير من هذا يجب ألاّ يُقْعِدَكَ هذا فتخسر، ستكون خاسراً. متى ما حصلت هذه النظرة، وهي نظرة قريبة من ذهنية الإنسان فعلاً، نظرة قريبة من ذهنيتك إذا كنتَ إنساناً تعقل وتفهم، وتؤمن بالله، وتثق بالله، وتطَّلع على ما عرضه في آيات القرآن الكريم من كلام عن الآخرة، عن الجنة، وعن رضوانه، أليست هذه أفضل من كل هذه الدنيا؟ إذاً لاحِظ كيف خسارة الإنسان عندما يقعد.

هذه الآية تعني: بأنه لا ينبغي لك أن تؤثر هذه الأشياء على ما هو خير أفضل منها، وأدوم منها، وأرقى منها،

فكيف حالتك عندما يقعدك لا شيء؟ مثلنا، لا شيء، من الذي لديه كيلو من الذهب ناهيك عن قنطار من الذهب؟ يُقعِد الناس لا شيء! بيوت غير جيدة، ولا يوجد ذهب، ولا فضة، ولا خيل، ولا نسوان مثلما قال هناك: ﴿وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ ماذا لديه؟ قد يكون لديه قطعة أرض عوجاء فيها (سَرَبان أو ثلاثة قات) لم يعد مستعداً أبداً أن يفارقها! مع أنه في الأخير لا تنتهي المسألة بأن يقال لك: تخلَّ عن هذه، لكن اعرفْ.

تأمّل نظرة نبي الله سليمان عليه السلام كيف كانت؟ دنيا هائلة جداً، ومع هذا كان إنساناً مرتبطاً في ذهنيته يعرف أن رضوان الله أهم من هذه كلها ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾(النمل:٤٠) ألم يقل هكذا؟ لا يُوجِد انشداداً إلاّ الجهلُ، الجهل هو الذي يجعل الإنسان ينشدّ، أي: الجهل بالله، الجهل بكتابه، الجهل بما وعد به، الجهل بما هو خير لك، نحن جاهلون بما هو خير لنا فينشدّ إلى دنيا ليست شيئاً! أي: لا ينبغي أن تنشدّ إليها فتؤثرها وتقعدك وإن كانت على هذا النحو: نساء وبنين وقناطير مقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة – من أرقى الخيل، معنى مسومة: معلَّمة – والأنعام والحرث. ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾(آل عمران:١٤).

ثم يقول: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيرٍ مِن ذَلِكُمْ﴾(آل عمران:١٥) من هذا بكله، ليست الآية تعني هجوماً على الدنيا، هل فيها ما يعني هجوماً على الدنيا؟ لا، المشكلة هنا في الداخل، المشكلة عند الإنسان عندما لا يتفهم، لا يعقل، لا يعرف، متى ما فهم ستكون هذه – وإن كان يملك هذه كلها – خيراً له، ويأتي من ورائها الخير العظيم له في الآخرة، لا يقال نتخلى عنها، هل قال نتخلى عنها؟ لا، بل نوظفها في الخير العظيم في الدنيا، والخير العظيم الذي هو أرقى خير في الآخرة: الجنة ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾(آل عمران:١٥) هو بصير عندما تُؤْثر مثل هذه أو دونها يُحوِّلها إلى عذاب لك، يجعلها خسارة لك، هو بصير بعباده.

بعدما قال: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيرٍ مِن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾(آل عمران:١٥) لاحِظ موضوع ﴿خَالِدِينَ﴾ فيجب أن تقارن حتى لو كانت الجنة دون هذه الحالة، لو كانت دون وهي دائمة لا تنقطع فإنها أفضل، أي: لو أنت تقارن بين حالتكَ أنت في الدنيا أليس الكثير من الناس قد يكون راضياً بوضعيته هكذا؟ حتى لو لم تكن الجنة إلاّ مثل ما لديك في الدنيا وهو دائم فإنه أفضل مما لديك، ما بالك عندما يكون موضع سوط فيها أفضل من هذه الدنيا بكلها؟ ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

فالذين اتقوا مَن هُم؟ ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾(آل عمران:١٦) منشدِّين إلى الله ومزيَّن لهم الإيمان بالله، الأعمال الصالحة، العمل في سبيل الله، ليسوا من الذين زُيِّن لهم حب الشهوات من النساء والبنين...إلخ، منشدِّين إلى الله ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾(آل عمران:١٦، ١٧) هذه صفات هامة جداً.

﴿الصَّابِرِينَ﴾ يعرفون الصبر عندما يكون لله وفي سبيله يُعتبَر عملاً صالحاً، ويُعتبَر الوسيلة الصحيحة للفرج، هم صابرون في سبيله، هم يعملون، صبر عملي وليس صبراً لظلم وقهر واستعباد. ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ الصادقين في إيمانهم، الصادقين في مواقفهم، الصادقين في فهمهم لدينهم؛ ولهذا قال في آية سابقة، عندما قال في (سورة البقرة): ﴿لَيسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَومِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ إذاً لاحِظ الصادقين هنا ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾(البقرة:١٧٧) والصادقون في أقوالهم في وعودهم كل ما تتناوله كلمة (صدق).

﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ الخاضعين لله والخاشعين لله ﴿وَالْمُنفِقِينَ﴾ منفقين من أموالهم في سبيل الله وفي كل ما وجههم الله أن ينفقوا فيه ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ ليس عندهم غرور، الأسحار: آخر الليل الوقت القريب من وقت الفجر، في هذه الحالة التي تكون عند الكثير من العباد، عند الكثير من المؤمنين يَعتبِر نفسه عندما يقوم وقت السحر يتركع فيظن (أنه من أولياء الله والجنة مفتحة له) لا، المؤمنون يكونون مستغفرين في الأوقات التي قد تكون عادة ينشأ منها – إذا لم يكن هناك وعي وفهم – حالة غرور فيظن ماذا؟ (أن الباري يتمنى بأنه قد مات ليدخله الجنة) لا، هؤلاء مستغفرون في الأوقات التي هي أوقات يحصل فيها غرور عند آخرين عند جهلة العبّاد.

فهو هنا عدَّد أشياء، ألم يعدِّد أشياء؟ هذه هامة جداً، وهذه الأشياء هي في متناول الإنسان إذا رجع إلى الله واستعان بالله، ليست الجنة متوقفة على أنك لا بُد أن يكون لديك خيل، ولديك نساء، وبنين، وقناطير مقنطرة من ذهب وفضة، وخيل مسومة، وأنعام وحرث...إلخ، لا، هذه قائمة أخرى لو لم يكن لديك شيء من هذه، ألم

يعدِّد هنا قائمة أخرى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾(آل عمران:١٧)؟ يحصل هؤلاء على ما هو خير مما لدى هؤلاء: قناطير مقنطرة من الذهب والفضة...إلخ.

إذاً عندما ترى أصحاب الثروات الكبيرة – مثلاً – فتكون أنت متحسراً لماذا أمَّا أنت؟! تجد أن بإمكانك أن تحصل على أفضل مما هم فيه من خلال هذه القائمة، وهي قائمة في متناولك أن تعملها، أن تستعين بالله وتكون من المؤمنين الذين يقولون: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾(آل عمران:١٦، ١٧) ألست ستحصل من خلال هذه على أحسن مما لدى الآخرين؟ تحصل من خلالها على رضوان الله وجنته بأرقى مما عند من زُيِّن لهم هذه المظاهر التي عدَّدها في الآية السابقة.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(آل عمران:١٨) شهد الله سبحانه وتعالى لنفسه بأنه لا إله إلاّ هو، وأنه القائم بالقسط في تشريعه، في هدايته، في تدبيره لشؤون خلقه، والملائكة شهدوا بهذه الوحدانية لله، وأنه قائم بالقسط، وأولو العلم: – أصحاب المعرفة الحقيقية – وهم يشهدون بأنه قائمٌ بالقسط في تشريعه، في هدايته، في تدبيره لكل شؤون خلقه.

يبدو أن كلمة (قسط) تفسَّر دائماً بمعنى: العدل، والقسط قد يكون أوسع من العدل، قد يكون عدلاً باعتبار ما يقابله، وباعتبار قد يكون العدل فيما بين قضيتين، أي: لا تجور في قضية لها طرفان، اعدلْ. القسط فيما يقوم عليه التدبير والتشريع والهداية بشكل عام، قائم على القسط، أي: على أفضل ما يكون، على أحسن ما يكون، العدل قد يكون واحداً من ماذا؟ من مظاهر القسط أو من ممارسات القسط.

﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هذا من القسط، أليس هذا واحداً من الأشياء التي تُعتبَر من القسط؟ لأنه عندما يكون أناس في هذه الدنيا لم يحصلوا على أموال لم يحصلوا على مظاهر من هذه: قناطير مقنطرة، وأشياء من هذه، أليست هذه يكون لها أسبابها بالنسبة للحياة هنا؟ يكون لها أسبابها، فـ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾(العنكبوت:٦٢) لكن أمام الطرف الآخر ما يجعلهم يحصلون على أفضل مما عند الآخرين، عندما يكونون: متقين صابرين صادقين قانتين منفقين مستغفرين بالأسحار.

إذاً أليس هذا – أيضاً – مجالاً مفتوحاً أمامك لتحصل على أفضل مما لدى الآخرين؟ هنا باعتبار الأرقام الكبيرة؛ لأنه عندما يقول: ﴿لِّلَّذِينَ اتَّقَوا﴾ هو أيضاً قال في آيات أخرى إنه يأتي من عنده – بالنسبة لهذه الحياة – بركات ويبسط الرزق ونعم كثيرة ﴿وَلَو أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوراَةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِن رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾(المائدة:٦٦) ألم يقل هكذا؟ ﴿وَلَو أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾(الأعراف:٩٦) ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾(الطلاق:٢، ٣) هنا فتح أمامهم الطريقة التي يمكن أن يحصلوا من خلالها على أفضل مما لدى الآخرين حتى هنا في الدنيا، وأن تلك الأرقام ستتحول في الأخير إلى وسيلة تعذيب نفسي لك عندما تكون أنت تمتلكها وأنت لا تسير فيها على هدى الله ﴿فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَولاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنيَا﴾(التوبة:٥٥) أليست هذه واحدة؟

إذاً ستحصل على أفضل مما حصل عليه هؤلاء هنا في الدنيا وفي الآخرة الجنة، الرضوان من الله الذي هو من الدنيا إلى الآخرة وهذا أهم مكسب للإنسان رضوان الله أعظم من الجنة؛ لأنه في ظل رضوان الله سبحانه وتعالى من هنا من الدنيا عندما يَرضى عنك من الدنيا يحصل أشياء كثيرة لك: تأييد ونصر ورحمة ولطف ورعاية، الجنة واحدة من ماذا؟ مِن مظاهر رضوان الله عن أوليائه؛ ولهذا قال في آية أخرى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾(التوبة:٧٢).

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾(آل عمران:١٨) فعندما تكون – مثلاً – السُّنة في هذه الحياة أن يكون هناك ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾(العنكبوت:٦٢) كلمة ﴿يَبْسُطُ﴾ زيادة. ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ ثم قد يقول الكثير من الناس: (لماذا إمَّا هم؟! لماذا إمَّا نحن؟! لماذا أولئك؟! ونحن؟!) وأشياء من هذه! الله هو القائم بالقسط، والحياة هي حياة واحدة، يجب أن تفهم بأنها حياة واحدة بالنسبة لك من هذه الدنيا إلى الآخرة فقط يوجد فاصل في الوسط – مثلما قلنا بالأمس – مثل فاصل نشرة الأخبار فقط، مسألة الموت إلى أن يأتي البعث مثل الفاصل الذي في النشرة، وإلاّ فهي حياة واحدة، والله هنا قد فتح أمام الناس هذا الباب الواسع الذي يجعلهم يحصلون على أفضل وأدوم وأحسن مما لدى الآخرين في الدنيا وفي الآخرة.

وهذا الباب مفتوح، فتحه الله بشكل عام للرجال والنساء، للرجل والمرأة ﴿الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ تشمل الرجل والمرأة، صابرين، وصادقين، وقانتين، ومنفقين، ومستغفرين بالأسحار، المرأة التي يُلقنها الغربيون: أن عليها أن تصارع وتناضل من أجل أن تحصل على حقوقها! يسمُّونها حقوقاً، أي: أنها تتوظف، وتملك وزارة، أو وكيلة

وزارة، وأشياء من هذه! أي: هي تنظر إلى ما لدى الرجل هذا الذي هو رجل منحط في الواقع، رجل – مثلاً – يلعب بالأموال العامة، ويدير الأشياء إدارة سيئة، هي تريد أن تحل محله لتعمل مثله! يُوجَد بابٌ آخر للتنافس في الخير الكبير، والقرب من الله، وأن يحظى الرجل أو المرأة برضوان الله.

هذا الباب هو الباب الواسع والباب الهام لأن تحصل على أرقى الأشياء، القرب من الله من المقامات المعنوية رضوان الله يُعتبَر قرباً من الله، هذا الذي هو يُعتبَر أهم من أيِّ قرب عند أيِّ طرف آخر في هذه الدنيا، وأهم مما يمكن أن يعطيك منصب مُعيَّن في الدنيا، القرب من الله وهذه الجنة النعيم العظيم أعلى نعيم ممكن أن يتصوره الإنسان، أو لا يبلغ إلى أن يتصوره ويتخيله كيف هو.

إذاً لماذا تحاول المرأة – وهي تجد مثلاً أناساً في مواقع قيادية، وزير، وكيل وزارة، مدير مكتب، مسؤول كذا، وهي تعرف بأن هؤلاء يديرون هذه الأشياء بطريقة سيئة، وأن الكثير منهم لا يراعون الأمة في شيء، ويظلمون عباد الله، وينهبون الأموال العامة، ويديرون الأشياء إدارة سيئة، وهي منافسة – أن تحل محله على ما هو عليه تريد مكانه! إذاً فهذا جهل، أن يُزيَّن لها هنا في الدنيا هذه الأشياء! إذا نظرنا للموضوع سنجد بأنه مسألة تزيين، ويكون لهذا التزيين أثره السلبي عندما تكون ناسية ما هو أفضل منه، وتنسى أن هناك ما هو أفضل منه وأرقى منه هناك باب مفتوح أمامك لتصل إليه، تنافس هنا، هذا محل المنافسة هنا؛ ولهذا قال في آية أخرى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾(المطففين:٢٦).

إذاً إذا كانت تريد أن تناضل كما تقول فلتناضل على أن تزيح هؤلاء الذين يظلمون الناس، ويحكمون بالباطل وينهبون الأموال العامة، ويفسدون في الأرض، وليس أن تكون متسابقة على أن تمسك موقعه فقط وتكون مثله وأسوأ، وفي الأخير تَعتبِر أنها حصلت على حقوقها، وحصلت على كذا! هذا الباب الذي هو باب هام للتنافس إلى ما هو أفضل (تقوى الله) وهذه النوعية من البشر عندما يكونون على هذا النحو هم الناس الذين يُصلحون في الأرض من الناس سواءً من الرجال أو النساء عندما يكونون مؤمنين متقين.

قلنا في هذا الموضوع: بأنها غلطة كبيرة عندما يسمونها حقوقاً! أليسوا يسمون هذه المسؤوليات حقوقاً؟ يلقنها الغربيون اليهود بأنها يجب أن تناضل من أجل أن تصل إلى حقوقها: أن تملك وزارة. المسؤولية، الوظيفة العامة يعتبرونها حقاً! وهذه هي غلطة كبيرة؛ لأن القضية الأساسية أنه لا يقال لهذه حقوق، بل هذه مسؤوليات، والمسؤوليات يُراعَى بالنهوض بها مَن لديهم أهلية للقيام بها، والموضوع بشكل عام هو عبارة عن مهمة ومسؤولية واحدة منوطة بالرجل والمرأة، بالإنسان بشكل عام، بني آدم بشكل عام لهم مسؤولية واحدة وتتعدد وتختلف أدوارهم في أداء المسؤولية الواحدة، ليسوا عبارة عن عالَمين، عالَم رجال، وعالَم نساء! بل عالَم الإنسان، والقرآن الكريم يركّز على هذا، أنهم عبارة عن عالَم واحد، عبارة عن بناء واحد، عبارة عن أمة واحدة، لا يمكن للمرأة أن تَعتبِر نفسها عالَماً وحدها، والرجل يَعتبِر نفسه عالَماً وحده، ولا يمكن أن يحصل الرجل على خير إلاّ وينال المرأة، ولا يُظلَم الرجل إلاّ وتظلَم المرأة، والعكس. أليست النساء يصحن أنهن مُضيَّعات تريد أن تناضل من أجل حقوقها؟ أليس الرجال مظلومين هم؟

إذاً فالتي تَعتبِر أن الظلم نالها إنما هو في إطار الظلم العام للرجال والنساء، وليست القضية أمَّا الرجال فهم مرتاحون، بل هم مظلومون حتى الكبار الآن، حتى الدول الآن قد أصبحت مظلومة، قد أصبحوا هم يصيحون، إذاً المسألة أن تُعرَف الأشياء أنه لا يوجد ما يُسمَّى حقوقاً في الواقع، بل هي مسؤولية من البداية، هي مسؤوليات كلها، الحقوق تتحقق تلقائياً من خلال أن ينهض كل الناس بمسؤولياتهم (الرجل والمرأة) وبأدوارهم للرجل دور وللمرأة دور، وداخل الرجال أدوار متعددة، وداخل النساء أدوار متعددة.

هو يُزيِّن للمرأة المناصب وهذه الأشياء؟ مثل هذه، مثل النساء والبنين والقناطير المقنطرة، ثم يقال لها: (أنت مظلومة، وهذا المجتمع لا يراعي المرأة لماذا لا يعطيها وزارة؟!) قلنا: لسنا راضين عن هذه الوضعية بكلها، عندما تناضل المرأة لتحصل على منصب مُعيَّن تنهب أموالاً، وتستغل المنصب مثلما يستغله الرجل؛ إذاً هي نفسها منحطة، أي: هذه هي نفسية الرجل السيئ، هذه المرأة السيئة التي تقابل الرجل السيئ.

لا، إنه يجب أن تنظر إلى أنه كيف يجب أن تكون الأشياء، وما هي المسؤولية المنوطة بالناس بشكل عام وأنها مسؤوليات، كلها مسؤوليات من عند أكبر واحد إلى عند أصغر واحد؛ ولهذا حتى فيما يتعلق بتصرفك في مالك متى ما حصل تصرف غير طبيعي أليس يحصل حَجْر؟ لماذا؟ لأن تصرفك في مالك هو في الواقع ليس ممارسة حقوق، بل هي مسؤوليات تنتهي في الأخير مسؤوليات، ما نسميه حقوقاً حتى في أموالنا الخاصة في ممتلكاتنا

هي في الواقع مسؤولية؛ ولهذا يحجر عليك: توقف؛ لأنك أصبحت تتصرف بما تحت يدك تصرفاً غير طبيعي، أي: تصرفاً عمَّا يجب أن تكون عليه من المسؤولية المنوطة بك التي تحكم تصرفك فيه، فكلها مسؤوليات، لكن ماذا؟ يسمونها (حقوق، حقوق، حقوق...إلخ) هذه يجب أن نحاربها؛ لأنها كلها تسمَّى مسؤوليات من عند أعلى رجل إلى آخر إنسان في المجتمع.

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾(آل عمران:١٩) وهذا عنوان لدين الله، الدِّين عند الله هو الإسلام له، وما ذكر سابقاً عن المتقين وما وعدهم به من النعيم العظيم والرضوان منه أليس يعكس ما لديهم من تسليم في أنفسهم لله عندما قال: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾(آل عمران:١٧)؟ هذه قدَّمت في الأخير أناساً مسلِّمين أنفسهم لله، أناساً خاضعين لله، هذا هو الدِّين، التسليم لله يجعلك تدين بما قدَّمه لك، وتلتزم بما فرضه عليك، بما دعاك إليه، بما أمرك به، والتسليم لله هي قضية عملية، لاحِظ المسلمين لله: صابرين، صادقين، قانتين، منفقين، مستغفرين، كلها أليست قضية عملية؟

﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾(آل عمران:١٩) لم يكن هناك تسليم لله ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾ أي: التسليم له، الإسلام له، أي: التسليم له، الخضوع له، قابلية ما دعا الإنسان إليه وما هداه إليه وما شرعه له. تلحَظ كيف يأتي من النفوس التي ليست مسلّمة لله ﴿بَغْيًا بَيْنَهُم﴾ بعدما بيَّن البيان الكامل ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ هذه تجدها – مثلما قلنا بالأمس – من الآيات تأتي كلما يذكر هذه، وكلها قضية هامة، يكون لديك نظرة بأن الاختلاف لا يأتي بسبب قصور في بينات الله، أو تقصير في أنبيائه أبداً، إنما يأتي هكذا وقد علموا لكن اختلفوا بغياً بينهم، والبغي هو في المقدمة يتنافى مع التسليم لله، وفي نفس الوقت اعتداء على الطرف الآخر، فهنا يحصل اختلاف.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾(آل عمران:١٩) ألم يأتِ في هذه الآية ﴿يَكْفُرْ﴾ بعدما ذكر أهل الكتاب وبعدما ذكر الدِّين؟ معناه: الرفض لِمَا يجب أن يكون الإنسان من الالتزام به مسلماً لله، وتحول إلى باغٍ، تحول إلى مخالف، سماه كافراً بمعنى: رافض ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ هذا أيضاً في الدنيا وفي الآخرة، أيَّ: لا يكن في ذهنك – أبداً – هذه العناوين أو إطلاقات الوعيد كلها فقط في الآخرة، بل وفي الدنيا يحصل، وفي الآخرة على أعلى مستوى من النعيم أو العقاب.

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾(آل عمران:٢٠) جادلوك حول موضوع دين، حول موضوع أشياء من هذه بعدما قال هناك: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾(آل عمران:١٩) أنا أسلمت وجهي لله ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ إمَّا أن يكون معناها: ومن اتبعني أسلموا وجوههم لله، أو أنا مسلِّم وجهي لله وأمامي من اتبعني مثلما قال في آية أخرى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾(يوسف:١٠٨) أي: لستُ وراء أن أبحث عن أرقام ألفلفها وأداهنكم وأجاملكم، يكفيني من اتبعني، من اتبعني أنا أنظر إليه أنا مسلِّم وجهي لله ومن اتبعني، قد يكون بعيداً أن يكون ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ معناها: مسلّمين وجوههم لله؛ لأن هذه قضية داخلية، هل تستطيع أن تقول إلاّ عن نفسكَ، إذا صدقتَ مع نفسك؟ هل يمكن أن تقولها عن الآخرين؟! تقول: والآخرون هم مسلِّمون وجوههم لله؟! قضية أخرى.

فهذه فيها ما يُوجِد عند الإنسان بأنه في موضوع المحاجة لن يدخل معهم في مداهنة أو تنازلات أو أشياء من هذه، إن كنتم تريدون أن تكونوا مسلمين لله وتتبعوني – كما قال في آية أخرى – : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾(آل عمران:٣١) أمَّا أنا فماذا؟ سأسير على هذه الطريقة، أنا مسلِّم نفسي لله ومكتفٍ بمن اتبعني؛ لأنه أحياناً قد يأتي مثلاً – إذا ما زال لديك نظرة أنك تريد أن تلف الآخرين وتلفلف لك أناساً – لا يوجد لديك رؤية ثابتة من البداية، فهنا قد تغلط، تحاول أن تداهن، تحاول أن تقدِّم تنازلات في موضوع الحِجَاج، في موضوع الحوار، في موضوع مفاوضات، وأشياء من هذه، وإن كان أولئك كثيراً، وإن كانوا كبار شخصيات من الذين يكون وراءهم كثير، قدِّمْ لهم الموضوع بأنه موضوع تسليم لله ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ﴾(آل عمران:١٩) أنا وأنت وأيُّ واحد أن نكون مسلمين لله ليس المقصود أنك تسلم لي أنا، أنا في المقدمة وأيُّ إنسان يجب أن نكون مسلمين لله؛ لأن الدِّين عند الله هو الإسلام ومع السلامة إذا لم تتبعني، يكفيني من اتبعني ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾(الأنفال:٦٢) أليست تعطي نظرة إلى من اتبعه؟ فإن كان من سيتبعه على هذه الطريقة: إسلام لله، ويسير بالمسيرة نفسها، ويكون كباقي الناس في المسيرة باعتبارهم مسلِّمين لله من أكبر رجل فيهم رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) فمرحباً به، ما لم فيبقى هناك حتى يأتي أمر الله.

﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ﴾(آل عمران:٢٠) الأميين: اسم يُطلَق على من يقابل أهل الكتاب، أي: كان العرب والأمم الأخرى التي ليست من أهل الكتاب يقال لهم: أميون، أي: الأمم التي تقابل من يقال لهم أهل الكتاب: أهل التوراة والإنجيل، يُسمَّون أهل الكتاب. ﴿أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيكَ الْبَلاَغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾(آل عمران:٢٠) عبارة ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾ هي تكشف بأن هناك تبييناً، هناك عملية تبيين وبلاغ أن يقول: ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾ الآن بعد البلاغ والتبيين، وما قُدِّم إليكم؟ معناه: أمَا آن الأوان أن تسلموا؟ ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾ لأن هذا استفهام.

﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ لاحِظ هذه الآية لا يوجد فيها مثلما يقولون: (ديانة سماوية أخرى، وعلى ما هم عليه، وتعايش سلمي، وننظر إليهم نظرة مثلما ننظر إلى الباقي، وهي كلها ثلاث ديانات سماوية) أليسوا يقولون هكذا؟! لا يوجد، هذا موقف وقد سبق مثله كثير ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا﴾ والإسلام لله هو: قبول هذا الدِّين الذي هو امتداد لدينه من يوم استخلف آدم، فإن اسلموا لله وآمنوا بما جاء به محمد (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) رسول الله، وبهذا القرآن ﴿فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيكَ الْبَلاَغُ﴾ أي: ليست القضية أنهم إذا تولوا إذاً كيف تحاول أن تعمل استرضاءات، أو تنازلات، أو تلفيقات، أو ترضى بشيء مُعيَّن مقابل شروط مُعيَّنة، لا ﴿وَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيكَ الْبَلاَغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ كلهم. هذه عندما يقول: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي: أن هذا الطرف الآخر نفسه الذي يتولى قد يأتي في يوم من الأيام شيء من جانبه يجعله عُرْضَة لأن يُضرَب إذا كان هناك مؤمنون فاهمون لدورهم، إذا لا يزال يوجد عند الناس إيمان بالشكل الذي كان حاصلاً عند الأولين كرؤية لديهم من خلال ما كان يُقدَّم لهم من عند رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) من الذين حكى الله عنهم ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِندِهِ أَو بِأَيدِينَا﴾(التوبة:٥٢) هذه سُنة إلهية أخرى بالنسبة للمعارضين.

لهذا نقول أكثر من مرة في موضوع أهل الكتاب: ليس معناه إقرار لهم على ما هم عليه عندما قيل مثلاً (يحصل مُصَالَحة مُعيَّنة أو هدنة وعهد يأتي من لديهم بألاّ يدعوا إلى ما هم عليه وألاّ يتآمروا على الإسلام وأن، وأن...) شروط من هذه. هم نفوسهم إمَّا أن يكونوا بالشكل الذي يذوبون في المجتمع فيسلمون وإلاّ لا بُد أن يظهر من عندهم شيء، لا بُد أن ينقضوا العهد، لا بُد أن يخالفوا فيُضرَبوا، والله بصير بعباده، أي: أنت لا تَعتبِر (إذاً معنى هذا ستبقى هناك أمة أمامنا أعداء وهم كذا... نحاول كيف نعمل من أجل أن نسلَم شرهم!) ليست هكذا. أسْلِمْ وجهك لله أنت ومن اتبعك، ويكون لديك رؤية واقتناع بمن اتبعك، وافهمْ بأن عليكَ البلاغ، والبلاغ ليس معناه كما يقال الآن (دعوة) مجرد دعوة! البلاغ هنا: دعوة وتربية، وبناء أمة، والآخرون الله بصير بهم سيأتي في يوم من الأيام يعملون شيئاً: يخالفون فيُضرَبون، ماذا حصل بالنسبة لليهود الذين كانوا عند المدينة وفي خيبر وفي...؟ جاء مِن عندهم أشياء فاتَّجه وضربهم.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ هنا في الدنيا وفي الآخرة، سريع الحساب، يحاسبهم هنا في الدنيا وفي الآخرة، وكثير منها نقول: ليست قضية صحيحة الذي يقول معناها (في الآخرة هناك!) لأنه أحياناً في الأخير تُضرَب الآخرة عندنا، أي: لا نسير في طريق الآخرة إذا لم تصح نظرتنا الدِّينية ودور الدِّين هنا في هذه الحياة، ومسؤوليات من يقومون بهذا الدِّين في هذه الحياة فيكونون هم يحوِّلون على الآخرة، سيقدمون على الآخرة وهي بشكل آخر، قد يقدمون على الآخرة ومصيرهم جهنم، لا بُد أن يعرف الإنسان هنا وقلنا هذا أثناء قول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(البقرة:٢٠١) إذا لم تكن عارفاً ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ ماذا تعنيه هنا؟ سيكبر أمامك أنه (ما زال هناك كثير - أمة هناك - معارضون، ومشاققون) فتأتي رؤى أخرى: كيف نحاول أن نسترضيهم، أو ندخل في مصالحات معهم! ويكون فيها تقديم تنازلات، مفاوضات يكون فيها تقديم تنازلات مُذلة، يكون فيها فضح للناس، وفضح للدِّين، كما يحصل الآن، كالمفاوضات التي تتم الآن بين العرب وبين اليهود بشكل مخزٍ أليست تحصل بشكل مُخزٍ؟ ليسوا متذكرين ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

استقيموا لأن معنى ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ﴾(آل عمران:٢٠) معناه استقامة، وثبات، وأنت عليك البلاغ، أنت وأنت في دورك مبلغ وتهدي، وتربي، وتعلم، وتبني، أنت جزء من التدبير الإلهي الذي يشمله ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ هذه قضية هامة. فإذا عند الإنسان معرفة بهذه الآية وكثير من نظائرها في القرآن تكون مساعدة على الإسلام لله، على الاستقامة، وأن يبقى الناس مسلمين لله، وأن يبقوا في مواقف صحيحة، وليس كما يحصل لا تدري إلاّ وهم قد صاروا يوزعون الدِّين تنازلات، ويقسمونه وفق رؤية أنه: (نحاول أن نتفادى أشياء كثيرة من كذا) لاحِظ

موقف الإيرانيين الآن فيما يتعلق بالطاقة النووية هو موقف ليس بالشكل اللائق أبداً، أمَّا العرب فهم أولئك في مفاوضاتهم، في مبادراتهم، كلها تقوم على نظرة: ناسين لهذه السُّنن الإلهية داخل القرآن.

هنا بدأ يذكر بني إسرائيل وما حصل من جانبهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِن نَاصِرِينَ﴾(آل عمران:٢١، ٢٢) موضوع الإحباط للأعمال نحن نقول: إن إحباط الأعمال في الدنيا، وفي الآخرة، تكون نتائجها سيئة هنا في الدنيا.

عندما يعرض ما كانوا عليه بعدما أمره أن يسلم ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾(آل عمران:٢٠) هي شبيهة بالآية السابقة: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(البقرة:٧٥) فلا يكن عندك طمع بالنسبة لهؤلاء أن يسلِّموا لك وقد كانوا على هذا النحو: ﴿يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: أنها قضية هامة يجب أن تعرف أنت الطرف الآخر حتى تفهم بأنه ليس بالشكل الذي تطمع فيه فيكون طمعك فيه بالشكل الذي يجعلك تقدِّم تنازلات تتنافى مع ما يجب أن تكون عليه من التسليم لله، واقتناع بمن هم متبعون لك في طريق التسليم لله، أي: هذه القضية قد يحصل فيها أخطاء كبيرة، هذه قضية هامة: أن تعرف الطرف الآخر.

ثم عندما يقول: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ وتجد أن هؤلاء تاريخهم على هذا النحو، واقعهم على هذا النحو: أنهم من المستحقين لعذاب أليم، فقد يكون هذا العذاب الأليم في الدنيا وفي الآخرة، وقد يكون مما يصل إليه الموضوع أو تصل إليه القضية، لا تكترث بهؤلاء ربما في يوم من الأيام يُضرَبون هم على يدك؛ لأنه عندما يُقدِّم لك عدوك بأنه على هذا النحو فهو عدو لم يعد يحظى بتأييد، ما هو عليه يُعتبَر نقطة ضعف كبيرة فيه جداً قد تجعله ضحية على يدك أنت فتضربه أنت؛ لأنه قال هنا ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(آل عمران:٢١) أليست هنا آية مطلقة (عذاب أليم)؟

يقول: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ﴾(آل عمران:٢٢) ومعنى أن تكون أعمالهم حابطة في الدنيا، أي: نتائجها سيئة، ما كان سيئاً فنتائجه سيئة، وما كان من أجل أن يحصلوا على نتائج طيبة من بعده وهم يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، وهم يكفرون بآيات الله، ويقتلون أنبياء الله، ويرفضون التسليم لله، فأيضاً لن تكون النتائج بالشكل الذي يطمعون فيه ويطمحون إليه ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِن نَاصِرِينَ﴾(آل عمران:٢١، ٢٢) أليس هذا يعطيك نظرة تجعلك بعيداً عن أن تقدِّم تنازلات لهم؟

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾(آل عمران:٢٠) هي شبيهة بموضوع مفاوضات، أو حوار، أو جدل، فأنت عندما تكون في حوار مع أطراف من هذا النوع ماضيهم أسود على هذا النحو، في موضوع جدال، أو حوار، أو مفاوضات، يجب أن يكون عندك هذه النظرة فتعرف أن هذا الطرف في واقعه هو واقع فيه نقاط ضعف كبيرة بالنسبة له لا يجوز أن أراه كبيراً فيكون بالشكل الذي يدفعني إلى أن أقدِّم تنازلات في تفاوضي معه وفي الأخير تكون أنت من قدَّم دينك وقدَّم الأمة بسبب رؤية مغلوطة إلى الطرف الآخر، فتُعتبَر قاعدة هامة في موضوع التفاوض مع الآخرين، أو الحوار، أو الجدل.

هذه مَنسيَّة، أليست مَنسيَّة عند العرب؟ على الرغم من مرور سنين طويلة، أي: يبدو لا يوجد التفات للقرآن ولا يوماً واحداً على الرغم من صراع مع اليهود – تقريباً – مع الغربيين بشكل عام، وتجدهم في عمى، في ضلال، لا يهتدون بشيء نهائياً، لا يبدو أنه يوجد التفاتة – ولا يوماً واحداً – للقرآن أن يهتدوا به! أليس هنا يعطي رؤى صحيحة في كيف يكون موقفك من الآخر؟ وأن هذه الرؤية هي هامة جداً جداً في ماذا؟ في أن تبقى مستقيماً لله ومستقيماً مع اتباعك ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾(آل عمران:٢٠) أي: ألم يؤدِّ بهم إلى أنهم قد أصبحوا مستعجلين إلى أن يُضَحُّوا بأتباعهم؛ لأنه ليس فيهم من يمكن أن يكونوا مسلمين لله، ومن اتبعهم، ضحوا بدين الله، ومضحين حتى بأتباعهم، وهم متحاورون ومقدِّمون مبادرات وتنازلات لليهود.

فهذه تعطي الناس أملاً أن يعرفوا أعداءهم أنهم هكذا، وأعداؤهم عندما يكونون على هذا النحو هذه نقطة ضعف كبيرة فيهم؛ تجعلهم عُرْضَة لأن يُضرَبوا، بأن يُذلوا، بأن يُخْزَوا، هم مستوجبون عذاباً، مستوجبون خزياً في الدنيا وعذاباً في الآخرة، أليست هذه نقطة ضعف كبيرة جداً؟ ولديكَ كل نقاط القوة إذا فهمتَها، وسرتَ على هدى الله، ووثقتَ بالله، إنما تكون القضية صعبة لو أنك تتحرك في مواجهة مؤمنين أولياء لله، هذه هي

القضية الصعبة، أي: هم الآن عندما يتحركون هي قضية يبدو أنها ملموسة فلهذا يحاولون أن يبعدونا عن الدِّين، هم يعرفون أنه فيما لو تحرك الناس على أساس دين الله، على أساس هذا القرآن الكريم فإنهم سيدخلون في صعوبة كبيرة جداً معهم، يُهزَمون أمامهم؛ ولهذا يحاولون أن يبعدونا عن الدِّين؛ لأن معناه أنهم سيدخلون في ماذا؟ في حرب مع أناسٍ اللهُ معهم وهذه القضية كبيرة جداً.

ولاحِظ كيف هم ينطلقون، ونحن كل مقومات العمل وكل نقاط القوة في جانبنا كمؤمنين عندما ننطلق على القرآن أن واقعهم هكذا، فواقعهم مليئ بنقاط الضعف الكبيرة، لا نفكر في هذه بل نحاول كيف نسترضيهم! نراهم أقوياء، نحاول كيف نسترضيهم، كيف نضحي بالدِّين وبالأمة من أجلهم! أليس هذا هو الذي يحصل على أيدي كثير من الحكام؟!

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَينَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُم مُعْرِضُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾(آل عمران:٢٣، ٢٤) يُعدِّد في هذه الآيات كثيراً من الأشياء التي تصرف الإنسان عن هدى الله، ألم يقل: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ...﴾(آل عمران:١٤) إلى آخره؟ أليست هذه واحدة منها؟ ذكر عن أهل الكتاب أيضاً باعتبار ما كان يحصل على أيديهم: كفر بآيات الله، وقتل النبيين، ثم ذكر كيف أنهم وهو يُقدِّم لهم كتاباً من عند الله هم اسمهم أهل كتاب، وهم معترفون هم، ويقولون على أنفسهم إنهم أهل الكتاب، ألم يكن يجب أن يكونوا هم أقرب وأول من يؤمن بالكتاب الذي من عند الله؟ تجدهم أبعد الناس عن الإيمان بكتاب الله واتباع كتاب الله لماذا؟ لأنه لم يعد إلاّ مجرد عنوان لديهم، قد حصل خلل كبير!

فمن الخلل الكبير بالنسبة لأيِّ أمة: معتقدات باطلة تقدَّم لديهم، فتشجعهم على أن يكفروا بآيات الله، ويعارضوا هدى الله ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُم مُعْرِضُونَ * ذَلِكَ﴾(آل عمران:٢٣، ٢٤) الذي شجعهم على المعارضة قد نسف عندهم موضوع الخوف من النار، الخوف من الله، والخوف من الوعيد الذي يؤدي في الأخير إلى ماذا؟ إلى خوف من عذابه، خوف من جهنم. فالعقائد الباطلة معناه أن لها دخلاً كبيراً جداً في صرف الناس عن هدى الله، وفي أن يكون لديهم جُرْأة على أن يعارضوا هدى الله، يعارضوا ما أنزله الله.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ كأنه يريد: ذلك بسبب أنهم هكذا لديهم عقيدة على هذا النحو جعلت الخوف من النار قد نُسِف ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ ولهذا دائماً نقول: إن العقائد الباطلة يكون لها دخل كبير في صرف الناس عن هدى الله ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾(آل عمران:٢٤) يخدعون أنفسهم بهذا يقولون: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ وينطلقون يخالفون ويعارضون وهم يعرفون أنه من عند الله، وهم أهل كتاب، وهم أقرب إلى أن يكونوا عارفين الكتب التي تأتي من عند الله، لكن هكذا تصنع العقائد الباطلة التي افتراها أسلافهم.

﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ هنا يقول (الوالد) في تفسير هذه الآية: معناها: وغرهم في دينهم ما كان يفتري أسلافهم، الأجيال السابقة منهم، يقول: لأن الإنسان لا يمكن أن يفتري شيئاً ثم يغتر به هو وهو يعرف بأنه كذِبُه، لا يغتر بشيء هو الذي افتراه، بل افتراه أسلافهم وقُدِّمت لديهم كعقيدة، وعقيدة لم يعد فيها نقاش تُعتبَر خدعة لهم، وتنظر كيف يكون أثرها في مواجهة هدى الله وما أنزله الله: معارضة، مخالفة. يُبيِّن بأنهم مغرورون بهذه العقيدة.

﴿فَكَيفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَومٍ لاَ رَيبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ لم يعد هناك (إلاّ أياماً معدودة) ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾(آل عمران:٢٥) مثلما قال في آية سابقة ﴿بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(البقرة:٨١).

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾(آل عمران:٢٦) هذه هي تشبه الآيات السابقة التي تذكّر الإنسان دائماً، وتذكّر أيَّ فئة من البشر بما فيهم أهل الكتاب بأن الله سبحانه وتعالى هو الذي له ملك السموات والأرض هو الذي له ما في السموات وما في الأرض، هو الذي يشرِّع لعباده، هو الذي يهدي؛ فيجب عليهم أن يكونوا مسلمين له، ومسلِّمين لأمره، ويقبلون كل ما جاء من عنده.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾ ألم يكن بنو إسرائيل ممن آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة، أورثهم الكتاب، وأتاهم مُلْكاً عظيماً كما في آيات أخرى؟ فالله هو مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، هذه القضية بالنسبة لبني إسرائيل ليأخذوا منها عبرة: أن يفهموا أنهم لا يمتلكون حَجْراً على

الدِّين بأنه لهم ويجب أن تكون النبوات منهم، ويجب أن يكون كل شيء منهم، ويسيروا أيضاً على مزاجهم فلم يعودوا يلتزمون! الملك هو لله، وهو الذي يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء.

في الموضوع الآخر أيضاً لها علاقة بما بعدها ألاّ يرى الناسُ أن الدنيا على وضعية مُعيَّنة (هناك دولة كبيرة، وهناك تركيبة مُعيَّنة في العالم) وكأنه لا يمكن أن يتغير؛ فيدفعهم إلى أن يتولوا أعداءه. يجب أن تفهم بأن الله هو مالك الملك، يمكن أن ينزع الملك عن هؤلاء، ويمكن أن يعطي الملك لآخرين فهو الذي يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء؛ ولهذا جاء بعدها: ﴿لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَولِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(آل عمران:٢٨).

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾(آل عمران:٢٦) قل هذه ليفهمها الناس كلهم بما فيهم بنو إسرائيل، وكل المؤمنين، فبنو إسرائيل يعرفون بأن الملك هو لله يجب عليهم أن يسلِّموا لله فيدينوا بما أنزل عليهم، وعلى الآخرين لكي لا يحصل لديهم رؤى فيها نوع من التنازلات تدفعهم إلى تولي أعداء الله ﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾ أنت يا الله ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ﴾ عندما ترى أنت طرفاً مُعيَّناً في حالة عزة وقوة ومنعة فافهمْ أنه ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾. ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ كل ما تعنيه كلمة (مُلْك) مُلْك السموات والأرض وما فيهما، ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم كله هو مُلْك الله.

﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيرِ حِسَابٍ﴾(آل عمران:٢٦، ٢٧) أليس هنا يعمل عملية مزج بين التدبيرين: التدبير في مجال التشريع، الهداية، الْمُلك، العزة، الذلة، أشياء من هذه، وتدبير شأن العالم بماذا؟ باختلاف الليل والنهار ﴿تُولِجُ اللَّيلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أليست هذه حالات متقلبة؟ إذاً القادر على أن يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو يحي الميت ويميت الحي وأشياء من هذه، لا يمكن أن يترك الجانب الآخر مهملاً، أي: تدبير إلهي واحد، هذا جاء في آية سابقة في (سورة البقرة): ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَومٍ يَعْقِلُونَ﴾(البقرة:١٦٤) لنفهم جميعاً بأن المسألة يجب أن تفهم بأنه هكذا: لا يمكن أن يكون هناك إغفال للجانب الآخر الذي هو جانب النظام في الحياة، جانب الهداية في الحياة، جانب التشريع، جانب عزة، وذلة، وإيتاء مُلك، ونزع مُلك، وأشياء من هذه، هذا تدبير لا ينفصل عن التدبير الآخر، هو مُدبِّر شؤون هذا العالم تدبيراً تكوينياً – كما يقولون – وتدبير ماذا؟ تدبير الهداية، تدبير الهداية، وتدبير الكون (التكويني).

﴿لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَولِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(آل عمران:٢٨) أعطاهم صورة عامة عن ماذا؟ عن واقع الحياة فلا يدفعك (مُلك) هناك تراه وكأنه لا يمكن أن يتحطم، ولا عزة هناك لطرف يبدو وكأنه في حالة منعة، لا، يمكن أن يأتي يوم من الأيام ويُذل، ولا (رزق) هناك فيدفعك إلى أن تتولى بسبب هذه الأشياء، الله هو ينزع الملك ممن يشاء، هو يذل من يشاء، ويرزق من يشاء بغير حساب، إذاً ماذا بقي هناك من شيء يدفعك إلى أن تتولى طرفاً آخر من هؤلاء؟ التولي قد يكون سببه هذه: لكون ذلك في موقع مُلْك وعزة ومال ويشكّل منعة، أليس كذلك؟ يجب أن تكون متولياً لله الذي بيده هذه الأشياء، فذلك الملك الذي قد يدفعك إلى توليه ستراه في يوم من الأيام يتهاوى ويؤتي آخرين، عزة لطرف، وذلة ترى نفسك فيها أو في حالة ترى نفسك مستضعفاً ستتهاوى تلك العزة.

﴿وَيُعِزُّ مَن يَشَاءُ﴾ يذل من كانوا أعزاء أمامك ويعز من تراهم أذلاء أمامك ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيرِ حِسَابٍ * لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَولِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(آل عمران:٢٧، ٢٨) لا يجوز هذا ولا يصح وغلطة كبيرة؛ لأنه قد نسف لك كل الأشياء التي قد تجعلك تتولى بسبب أنك تراه أمامك مُلكاً وعزة ومالاً ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيءٍ﴾(آل عمران:٢٨) هذه القضية خطيرة جداً، أي: كأنه ليس بينه وبين الله أيُّ شيء، وكأنه ليس مؤمناً بالله نهائياً ﴿فَلَيسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيءٍ﴾ لا يوجد أوضح من هذه الآية في نفيه تماماً وفصله عن كل شيء فلا إيمان، ولا شيء، لم يبقَ بينه وبين الله شيء على الإطلاق مثلما قال بالنسبة لرسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيءٍ﴾(الأنعام:١٥٩).

﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾(آل عمران:٢٨) التولي هناك منسوف تماماً لكن أن يحصل تَقِيَّة – كما يقال – أن تتقوا

منهم تقاة، هذه الحالة نفسها ليست حالة مطلوبة يكون للإنسان فيها تقديم وتقدير عناوين مُعيَّنة، وتفاصيل مُعيَّنة، بل هذه حالة تقدَّر في وقتها، وعندما تكون القضية ليست على حساب دين ولا على حساب أمة، لا تكون على حساب الدِّين ولا على حساب الأمة أبداً، وليست قضية شخصية بل تُقدَّر بقدَرها في حينها؛ لأن التقيَّة أصلها حالة استثنائية خاصة ليست قاعدة عامة أبداً؛ لأنها لو كانت قاعدة عامة لكانت على حساب الجهاد وحساب العمل بكله. هي حالة استثنائية طارئة لها ملابساتها، لها ظرفها الخاص، لها اعتبارات كثيرة بحيث لا تكون بالشكل الذي يحصل من ورائها ضر بالأمة أو ضر بالدِّين؛ ولهذا كانت قضية تحتاج إلى تقييم دقيق جاء بعدها تحذير: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾(آل عمران:٢٨).

لا تكن أنت مفكّراً في نفسك أن تعمل بالتقيَّة: (يجوز لنا أن نسكت لأجل أن نسلَم شرَّهم!) وتحاول أن تغطي على عيونك في المواقع التي يتبيَّن لك من خلالها بأن السكوت لم يعد ينفع! أليس هذا هو الواقع بالنسبة لتعامل الأمريكيين والإسرائيليين مع المسلمين الآن؟ لم يعد ينفع صداقة، ولا عمالة، ولا سكوت. عندما يأتي البعض يعتقد بأنه لا يزال بإمكانه أن يعمل شيئاً مُعيَّناً ويقول لك: ﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ أول شيء أن معناه: أن يكون شيئاً على هذا النحو السابق، وفي نفس الوقت اتجاه عملي، وليس على حساب الأمة ودين الأمة، بل على حساب أن يصل الناس إلى الموقف الطبيعي من هؤلاء الأعداء، وفي نفس الوقت أن يكون له أثر إيجابي أن يقي.

الآن هل أحد يستطيع أن يُقدِّم لنا شيئاً مُعيَّناً يقول: هذا يقينا من الأمريكيين والإسرائيليين؟ لا السكوت يقي ولا العمالة أصبحت تقي ولا الصداقة أصبحت تقي الناس منهم أبداً، أليست هذه قضية واضحة؟ إنما فقط قد يكون البعض ربما ممن هم يحكمون الناس، قد يأتي من علماء السوء أو العلماء (قد لا يُسَمَّون علماء حقيقة) يقول: إنه يجوز ﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ ثم لا تدري إلاّ وقد صار هو يُقدِّم شعبه، ويُقدِّم القرآن (اعملوا كيفما تريدون، وغيِّروا المناهج كيفما تريدون، والقرآن أخفوا ما تريدون وأبعدوا ما تريدون) معهم تَقِيَّة (يجوز له يجوز له) هنا يكون ماذا؟ يُقدِّم الدِّين، ويُقدِّم شعبه من أجل أن تُحفَظ له مصالحه الشخصية ومنصبه، ثم ترى في الأخير أن هذه أصبحت لا تشكّل وقاية له على الإطلاق.

في نفس الوقت هي لا تجوز على الإطلاق بهذه الطريقة لا يصح على الإطلاق: (لا أحد يتحدث عن الجهاد، واتركوهم يُغيِّروا المناهج، ومستعدون أن نغيِّر المناهج على ما يريدون!) بدعوى أننا نتقي منهم تقاة! (تقيَّة). ترى حتى (الاثنا عشرية) الذين هم معروفون بالتقيَّة لم تعد تنفعهم تقيَّتُهم نهائياً مع الأمريكيين، يَظهرون في التلفزيون وقالوا: (لا يجوز في ديننا أن نصنع أسلحة نووية ونضرب بها الآخرين، لا يجوز في الشريعة) لم يصدِّقوهم، وهم يصدرون فتاوى بهذا الشكل!

مسألة التقيَّة ليست قضية مزاجية ولا قضية شخصية في تقييمها، بل قضية دقيقة وخطيرة جداً؛ ولهذا بعدها يقول الله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾(آل عمران:٢٨) عندما تصبح تخدم العدو، تعمل له على حساب الدِّين وحساب الأمة على أساس أنها تقيَّة قد أصبحت ماذا؟ تعمل لهم! ليست التقيَّة بهذا الشكل نهائياً.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾(آل عمران:٢٨) وإلى الله المصير هو ﴿يَومَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾(الطارق:٩) قد تقول في الدنيا هنا: (حفاظاً على مصلحة الشعب، وماذا؟ ولنقي الشعب ضربة كانت مُحتمَلة) وأشياء من هذه! أليسوا يقولون هكذا؟ لا ﴿وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ أول شيء لا يكون فعلاً، الحاكمون أعتقد كلهم الآن لا يوجد شخص منهم يستطيع أن يُفسِّر معنى التقيَّة والتقيَّة التي يجوز له أن يعملها، إذا معه حاشية من علماء سوء يكون معناه في الأخير يقي نفسه ومنصبه ومصلحته على أساس أنها تنفع، مع أنها لا تنفع؛ فيكون يُقدِّم الدِّين والأمة، ويعمل للأعداء! أليس هنا يضحي بالأمة وبالدِّين؟ أين هذه التقيَّة التي يمكن أن تكون جائزة؟ تقية تضحي بالأمة والدِّين وأنت يجب أن تضحي بنفسك ومالك من أجل الدِّين ومن أجل الأمة!

هذه أول شيء أنها قضية دقيقة فيجب أن يكون هناك تحذير، أي: هناك تحذير رهيب جداً ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ * قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَو تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ * يَومَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَو أَنَّ بَينَهَا وَبَينَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَه﴾ أليس هذا تحذيراً مرة ثانية ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾(آل عمران:٢٨-٣٠) وبعضهم يقول: (تقيَّة، نسكت؛ لأجل أن نسلَم شرَّهم) ليست الأمور بهذا الشكل، يجب أن تعرف أنها مسألة دقيقة من الذي يُقدِّرها؟ ليست هذه التقيَّة قضية مزاجية لأيِّ شخص، بل حالة استثنائية وقتية طارئة تحتاج

إلى تقييم دقيق جداً يراعي كل الاعتبارات (اعتبار الأمة والدِّين) ولا يكون فيها ذرة من الهوى من أجله شخصياً ويضحي بالأمة والدِّين. كم لها من ضوابط كثيرة ومن العجيب أن البعض من الناس المتعلمين ومن الناس العاديين يقولون: ﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾(آل عمران:٢٨) (يسكت الواحد، ويترك أيَّ عمل).

قلنا هذه ليست تقية، أول شيء أنت غالط، لم تعد تمثل ﴿تُقَاةً﴾ بمعنى أنك ستسلَم شرَّهم على الإطلاق، تأمَّلْ: هم الآن لا تجد منهم خصلة يمكن أن تقي الناس شرَّهم إلاّ أن يجاهدوا، لم يعد من حل إلاّ هذه: أن يرجعوا إلى الله، ويتمسكوا بكتاب الله، ويجاهدوهم في سبيل الله، هذه هي الطريقة الوحيدة التي تمثل وقاية.

هنا كيف الآية تذكر موضوع النفس التي تأتي "تطانين"[1] من داخلها، يصنفها من داخل نفسه وقال: (قد صارت تقيَّة) ألم يذكر في هذه الآيات كلها (صدور) و(نفس): ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَه﴾(آل عمران:٢٨) ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَو تُبْدُوهُ﴾(آل عمران:٢٩) ﴿يَومَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيرٍ مُحْضَرًا﴾(آل عمران:٣٠) وبعدها يقول: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَه﴾(آل عمران:٣٠)؟ تلك المساحة وليس أن "تطلّع لك تطانين" أخرى وفي الأخير تقول للناس: (من أجل المصلحة العامة، ومن أجل الوطن، ومن أجل أن نتقي ضربة كانت مُحتمَلة) وأشياء من هذه.

لاحِظ هناك تَقدَّم قبلها تلك الآيات السابقة من عند: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾(آل عمران:٢٠) ثم يُبيِّن له الطرف الآخر، إذاً فالشيء الطبيعي أمام طرف من هذا النوع هو أن تنطلق لتضربه؛ لأنه معرَّض للضربة أساساً، أليس مُعرَّضاً للضربة؟ هو طاغٍ، هو كافر، هو محارب لله ورسوله، ماضيه وحاضره كله سيئ، وليس أن تحاول أن تفكر كيف تتقي تقاة، وتُقدِّم لي تقيَّة، ليست تقيَّة على الإطلاق، بل هي خدمة للعدو؛ لهذا جاءت بعد أن قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِن نَاصِرِينَ﴾(آل عمران:٢٢) أليس هنا يُقدِّم لك نقاط ضعف فيهم؟ تفكر كيف تواجههم وكيف تضربهم.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ اليهود كانوا يقولون: ﴿نحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾(المائدة:١٨) قال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللهَ﴾(آل عمران:٣١، ٣٢) لأن الله سبحانه وتعالى فيما يتعلق بدينه لا يقوم على أساس قومية أو عنصرية مُعيَّنة، وقد أصبح له موقف من جنس مُعيَّن! بل موقف من أناس باعتبار ما هم عليه: سيئين، إذا كنتم ستتبعون كما قال هنا: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ يحببكم ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تصبحون مثل بقية عباد الله وأوليائه، تتخلون عمَّا أنتم عليه.

أي: ليس لهذا الدِّين ولهذا القرآن موقف من جنس مُعيَّن وإنما باعتبار ما عليه أيُّ ناس كانوا وإن كانوا من (قريش) وإن كانوا من (آل محمد) باعتبار ما هم عليه.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾(آل عمران:٣٢) هذه واضحة هنا يقول لهم: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ يقول له أيضاً: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ ليست كلمة فقط هكذا (لا يحب الكافرين) وراءها أشياء كثيرة، ماذا سيعمل بهؤلاء الكافرين الذين لا يحبهم؟ كيف سيعمل بهم؟ ألم يتحدَّث سابقاً: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِن نَاصِرِينَ﴾(آل عمران:٢٢) كم لها من أشياء، كلها مواقف في الأخير يبتني عليها مواقف كثيرة.

إلى هنا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين.

[الله أكبر / الموت لأمريكا / الموت لإسرائيل / اللعنة على اليهود / النصر للإسلام]

تم هذا الإخراج الجديد بعد مزيد من
المراجعة والمقابلة مع (الكاسيت) الصوتي
بتاريخ: ٢٨ جمادى الآخرة ١٤٤٢هـ
الموافق: ١٠/ ٢/ ٢٠٢١م

(١) التَّطَانِيْن: مِنَ اللهجة العامية، وتعني: الوَسَاوِس.

الله أكبر
الموت لأمريكا
الموت لإسرائيل
اللعنة على اليهود
النصر للإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

دروس من هدي القرآن الكريم

ألقاها السيد / حسين بدر الدين الحوثي

قاطعوا
البضائع الأمريكية
و
الإسرائيلية

دروس من سورة آل عمران	الدرس الأول ٢٠٠٢/١/٨م	الدرس الثاني ٢٠٠٢/١/٩م	الدرس الثالث ٢٠٠٢/١/١١م	الدرس الرابع ٢٠٠٢/١/١٢م
دروس من سورة المائدة	الدرس الأول ٢٠٠٢/١/١٣م	الدرس الثاني ٢٠٠٢/١/١٤م	الدرس الثالث ٢٠٠٢/١/١٥م	الدرس الرابع ٢٠٠٢/١/١٦م
دروس معرفة الله				
الثقة بالله ـ الدرس الأول ٢٠٠٢/١/١٨م	نعم الله الدرس الثاني ٢٠٠٢/١/١٩م	نعم الله الدرس الثالث ٢٠٠٢/١/٢٠م	نعم الله الدرس الرابع ٢٠٠٢/١/٢١م	نعم الله الدرس الخامس ٢٠٠٢/١/٢٢م
عظمة الله الدرس السادس ٢٠٠٢/١/٢٣م	عظمة الله الدرس السابع ٢٠٠٢/١/٢٥م	عظمة الله الدرس الثامن ٢٠٠٢/١/٢٦م	وعده ووعيده الدرس التاسع ٢٠٠٢/١/٢٨م	وعده ووعيده الدرس العاشر ٢٠٠٢/١/٢٩م
وعده ووعيده الدرس الحادي عشر ٢٠٠٢/١/٣٠م	وعده ووعيده الدرس الثاني عشر ٢٠٠٢/٢/٤م	وعده ووعيده الدرس الثالث عشر ٢٠٠٢/٢/٥م	وعده ووعيده الدرس الرابع عشر ٢٠٠٢/٢/٦م	وعده ووعيده الدرس الخامس عشر ٢٠٠٢/٢/٨م
دروس متفرقة				
الصرخة في وجه المستكبرين ١٧/ ١/ ٢٠٠٢م	{اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً} ٢٠٠٢/١/٢٤م	الهوية الإيمانية ٢٠٠٢/١/٣١م	في ظلال دعاء مكارم الأخلاق (١) ٢٠٠٢/٢/١م	في ظلال دعاء مكارم الأخلاق (٢) ٢٠٠٢/٢/٢م
خطر دخول أمريكا اليمن ٢٠٠٢/٢/٣م	لتحذن حذو بني إسرائيل ٢٠٠٢/٢/٧م	معنى الصلاة على محمد وعلى آل محمد ٢٠٠٢/٢/٨م	معنى التسبيح ٢٠٠٢/٢/٩م	{وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى} ٢٠٠٢/٢/١٠م
{وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ} ٢٠٠٢/٢/١١م	الإرهاب والسلام ٢٠٠٢/٣/٨م	مسؤولية طلاب العلوم الدينية ٢٠٠٢/٣/٩م	خطورة المرحلة ٢٠٠٢/٣/١٦م	دروس من وحي عاشوراء ٢٠٠٢/٣/٢٣م
{وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ} ٢٠٠٢/٧/٢٦م	الثقافة القرآنية ٢٠٠٢/٨/٤م	آيات من سورة الكهف الجمعة ٢٠٠٣/٨/٢٩م	{وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} ٢٠٠٢/٩/٢م	الإسلام وثقافة الاتباع ٢٠٠٢/٩/٢م
لا عذر للجميع أمام الله ١٤٢٢/١٢/٢١هـ	مسؤولية أهل البيت ٢٠٠٢/١٢/٢١م	أمر الولاية ١٨ من ذي الحجة ١٤٢٢هـ	يوم القدس العالمي ٢٨ رمضان ١٤٢٢هـ	دروس من غزوة أحد ذو الحجة ١٤٢٢هـ
آيات من سورة الواقعة ١٠ رمضان ١٤٢٣هـ	الشعار سلاح وموقف ١١ رمضان ١٤٢٣هـ	ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام ١٩ رمضان١٤٢٣هـ	حديث الولاية ١٨ من ذي الحجة ١٤٢٣هـ	{وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي} ١٤٢٣هـ
الموالاة والمعاداة ١٤٢٣هـ	{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا}	الوحدة الإيمانية	{فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِّي هُدًى}	{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ}
من نحن ومن هم	دروس مديح القرآن من الدرس الأول إلى الدرس السابع من تاريخ ٥/٢٨ /٢٠٠٣م إلى تاريخ ٢٠٠٣/٦/٣م			
دروس شهر رمضان المبارك ١٤٢٤ هـ				
سورة البقرة: الآيات (٢١ـ ٣٩) ٣ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات (٤٠ ـ ٦٦) ٤ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات (٦٧ـ١٠٣) ٥ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات (١٠٤ـ١١٤) ٦ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات(١١٥ـ١٤٥) ٧ رمضان ١٤٢٤هـ
سورة البقرة: الآيات (١٤٦ـ١٨٦) ٨ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات(١٨٥ـ٢١٤) ٩ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات(٢١٥ـ٢٥٢) ١٠ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات(٢٥٢ـ٢٧٤) ١١ رمضان ١٤٢٤هـ	الآيات(٢٧٥من البقرة ـ٣٢ من آل عمران) ١٢ رمضان ١٤٢٤هـ
سورة آل عمران: الآيات (٣٣ـ٩١) ١٣ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة آل عمران: الآيات (٩٢ـ١١٦) ١٤ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة آل عمران: الآيات (١٦١ـ آخر السورة) ١٦ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة النساء: الآيات (١ ـ ٤٢) ١٧ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة النساء: الآيات (٤٣ـ١١٦) ١٨ رمضان ١٤٢٤هـ
سورة النساء: الآيات (١٣٥ ـ آخر السورة) ٢٠ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة المائدة: الآيات (١ ـ ٢٦) ٢١ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة المائدة: الآيات (٢٧ ـ ٥٧) ٢٢ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة المائدة: الآيات (٥٥ ـ آخر السورة) ٢٣ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأنعام: الآيات (١ ـ ٣٩) ٢٤ رمضان ١٤٢٤هـ
سورة الأنعام: الآيات (٣٩ ـ ١٠٢) ٢٥ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأنعام: الآيات (١٠٣ ـ آخر السورة) ٢٦ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأعراف: الآيات (١ ـ ١٣٧) ٢٧ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأعراف: الآيات (١٣٨ـ١٦٢) ٢٨ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأعراف: الآيات (١٦٣ ـ آخر السورة) ٢٩ رمضان١٤٢٤هـ